سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

تعليقات

الشيخ صالح بن عبد الله العصيمي

علىٰ كتاب

خلاصة تعظيم العلم

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

خُلاصَةُ

تَعظيمِ العِلمِ

تصنيف

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله المعظَّمِ بالتَّوحيد، وصلَّى الله وسلَّم على عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ المخصوصِ بأجلِّ المزيد، وعلى آله وصحبه أُولي الفضل والرَّأي السَّديد.

أمَّا بعدُ:

فهذه من كتابي «تعظيمِ العِلمِ» خُلاصةُ اللَّفظ، أُعِدَّت بالتقاطها لمقصَد الحفظ، فاستُخرِج منه للمنفعة المذكورة اللُّباب، وجُعِل فيه الأُنموذج من كلِّ بابٍ؛ ليكونَ في نفوس الطَّلبة شمسَ النَّهار، ويَترشَّحوا بعدَه إلى العمل والادِّكار.

فأسألُ اللهَ لي ولهم لزومَ معاقدِ التَّعظيم، والفوزَ بجوامعِ فضلِهِ العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ، وعلىٰ آله وصحبه عدد من تعلَّم وعلَّم.

أمَّا بعد:

فإنَّ حظَّ العبد من العلم موقوفٌ علىٰ حظِّ قلبه من تعظيمه وإجلاله، فمن ٱمتلأ قلبه بتعظيم العلم وإجلاله؛ صلُح أن يكون مَحَلًّا له، وبقدر نقصان هيبة العلم في القلب؛ ينقص حظُّ العبد منه، حتَّىٰ يكونَ من القلوب قلبٌ ليس فيه شيءٌ من العلم.

فمن عظَّم العلم لاحت أنواره عليه، ووفَدَت رُسل فنونه إليه، ولم يكن لِهمَّته غايةٌ إلا تَلقِّيه، ولا لنفسه لذَّةٌ إلَّا الفكرُ فيه، وكأنَّ أبا محمَّدٍ الدَّارميَّ الحافظ رَحِمَهُ اللهُ لَمَحَ هٰذا المعنىٰ، فَخَتَمَ كتاب العلم من سننه المسمَّاة بـ«المسند الجامع» ببابٍ في إعظام العلم.

وأعونُ شيءٍ علىٰ الوصول إلىٰ إعظام العلم وإجلاله: معرفةُ معاقد تعظيمه، وهي الأصول الجامعة، المحقِّقَةُ لِعَظَمَة العلم في القلب، فمن أخذ بها كان معظِّمًا للعلم مُجِلًّا له، ومن ضيَّعها فلنفسه أضاع، ولِهَواه أطاع، فلا يلومنَّ ـ إن فتر عنه ـ إلَّا نفسه، (يداك أوْكَتَا وفوك نَفَخَ)، **ومن لا يُكرِمُ العلمَ لا يُكرِمُه العلمُ.**

المعقِد الأوَّل

تطهير وعاء العلم

وهو القلب؛ وبحسَب طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ٱزدادت طهارته ٱزدادت قابليَّته للعلم.

فمن أراد حيازة العلم فليُزيِّن باطنه، ويُطهِّرْ قلبه من نجاسته؛ **فالعلم جوهرٌ لطيفٌ، لا يَصلُح إلَّا للقلب النَّظيف.**

وطهارة القلب ترجع إلىٰ أصلين عظيمين:

أحدهما: طهارته من نجاسة الشُّبهات.

والآخر: طهارته من نجاسة الشَّهوات.

وإذا كنت تستحي من نظر مخلوقٍ مثلِك إلىٰ وسخ ثوبك، فاستحِ من نظر الله إلىٰ قلبك، وفيه إحَنٌ وبلايا، وذنوبٌ وخطايا.

ففي صحيح مسلمٍ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولٰكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**».

من طهَّر قلبه فيه العلم حَلَّ، ومن لم يرفع منه نجاسته وَدَعَه العلمُ وارتحل.

قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخله النُّور، وفيه شيءٌ ممَّا يكره الله عَزَّوَجَلَّ».

المعقِد الثَّاني

إخلاص النيَّة فيه

إنَّ إخلاصَ الأعمال أساسُ قَبولها، وسُلَّمُ وصولها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنَة: الآية ٥].

وفي الصَّحيحين عن عمرَ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الأعمال بالنِّيَّة، ولكل ٱمرئٍ ما نوىٰ**».

وما سبَق مَن سبَق، ولا وصَل مَن وصَل من السَّلف الصَّالحين؛ إلَّا بالإخلاص لله ربِّ العالمين.

قال أبو بكرٍ المرُّوذيُّ رحمه الله: سمعت رجلًا يقول لأبي عبد الله ـ يعني أحمدَ ابن حنبلٍ ـ وذكر له الصِّدق والإخلاص؛ فقال أبو عبد الله: «بهٰذا ٱرتفع القوم».

وإنَّما يَنال المرءُ العلمَ علىٰ قدر إخلاصه.

والإخلاص في العلم يقوم علىٰ أربعة أُصولٍ، بها تتحقَّق نيَّة العلم للمتعلِّم إذا قصدها:

الأوَّل: رفعُ الجهل عن نفسه؛ بتعريفها ما عليها من العبوديَّات، وإيقافها علىٰ مقاصد الأمر والنَّهي.

الثَّاني: رفع الجهل عن الخلق؛ بتعليمهم وإرشادهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم.

الثَّالث: إحياء العلم، وحفظه من الضَّياع.

الرَّابع: العمل بالعلم.

ولقد كان السَّلف ـ رحمهم الله ـ يخافون فوات الإخلاص في طلبهم العلم، فيتورَّعون عن ٱدِّعائه، لا أنَّهم لم يُحقِّقوه في قلوبهم.

سئل الإمامُ أحمدُ: هل طلبت العلم لله؟ فقال: «لله عزيزٌ!!، ولكنَّه شيءٌ حُبِّب إليَّ فطلبتُه».

ومن ضيَّع الإخلاص فاته علمٌ كثيرٌ، وخيرٌ وفيرٌ.

وينبغي لقاصد السَّلامة أن يتفقَّد هٰذا الأصل ـ وهو الإخلاص ـ في أموره كلِّها، دقيقِها وجليلِها، سِرِّها وعَلَنِها.

ويَحمِلُ علىٰ هٰذا التَّفقُّدِ شدَّةُ معالجة النِّيَّة.

قال سفيان الثَّوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نِيَّتي؛ لأنَّها تتقلَّب عليَّ».

بل قال سليمان الهاشميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ربَّما أُحدِّث بحديثٍ واحدٍ ولي نِيَّةٌ، فإذا أتيتُ علىٰ بعضه تغيَّرت نيَّتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلىٰ نيَّاتٍ».

المعقِد الثَّالث
جمع هِمَّة النَّفس عليه

تُجمع الهِمَّة علىٰ المطلوب بتَفقُّد ثلاثة أمورٍ:

أوَّلِها: الحرص علىٰ ما ينفع، فمتىٰ وُفِّق العبد إلىٰ ما ينفعه حَرَص عليه.

ثانيها: الاستعانة بالله ﷻ في تحصيله.

ثالثِها: عدم العجز عن بلوغ البُغية منه.

وقد جُمِعت هٰذه الأمورُ الثَّلاثة في الحديث الَّذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**احرِصْ علىٰ ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تَعْجِزْ**».

قال الجُنَيد رحمه الله: «ما طلب أحدٌ شيئًا بجدٍّ وصدقٍ إلَّا ناله، فإن لم يَنَلْه كلَّه نال بعضه».

وقال ابن القيِّم رحمه الله في كتابه «الفوائد»:

«إذا طلع نجم الهِمَّة في ظلام ليل البَطالة، ورَدِفه قمرُ العزيمة؛ أشرقت أرض القلب بنور ربِّها».

وإنَّ ممَّا يعلي الهِمَّة ويسمو بالنَّفس: ٱعتبارَ حال مَن سبق، وتعرُّفَ هِمم القوم الماضين.

فأبو عبد الله أحمد ابن حنبلٍ كان ـ وهو في الصِّبا ـ ربَّما أراد الخروج قبل الفجر إلىٰ حِلَق الشُّيوخ، فتأخذ أُمُّه بثيابه وتقول ـ رحمةً به ـ: «حتىٰ يُؤَذِّنَ النَّاس أو يُصبحوا».

وقرأ الخطيب البغداديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ «صحيحَ البخاريِّ» كلَّه علىٰ إسماعيل الحِيريِّ في ثلاثة مجالسَ؛ ٱثنان منها في ليلتين من وقت صلاة المغرب إلىٰ صلاة الفجر، واليوم الثَّالث من ضحوة النَّهار إلىٰ صلاة المغرب، ومن المغرب إلىٰ طلوع الفجر.

وكان أبو محمَّدٍ ابنُ التَّبَّانِ أوَّلَ ٱبتدائه يدرس اللَّيل كلَّه، فكانت أُمُّه ترحمه وتنهاه عن القراءة باللَّيل، فكان يأخذ المصباح ويجعله تحت الجَفنة ـ شيءٍ من الآنية العظيمة ـ ويتظاهر بالنَّوم، فإذا رقدت أخرج المصباح وأقبل علىٰ الدَّرس.

فكن رجلًا رِجْلُه على الثَّرىٰ ثابتة، وهامةُ همَّته فوق الثُّريا سامقة، ولا تكن شابَّ البدن أشيبَ الهِمَّة؛ فإنَّ هِمَّة الصَّادق لا تشيب.

كان أبو الوفاء ابن عَقيل ـ أحدُ أذكياءِ العالم من فقهاء الحنابلة ـ يُنشِد وهو في الثَّمانين:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خُلُقي
ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي

وإنَّما ٱعتاض شعري غيرَ صِبغته
والشَّيبُ في الشَّعر غيرُ الشَّيب في الهِممِ

المعقِد الرَّابع
صرف الهِمَّة فيه إلىٰ علم القرآن والسُّنَّة

إنَّ كلَّ علمٍ نافعٍ مردُّه إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وباقي العلوم: إمَّا خادمٌ لهما؛ فيؤُخذ منه ما تتحقَّق به الخِدمة، أو أجنبيٌّ عنهما؛ فلا يضُرُّ الجهل به.

وما أحسنَ قولَ عياضٍ اليَحصُبيِّ في كتابه «الإلماع»:

العلم في أصلين لا يَعْدُوهما
إلَّا المُضِلُّ عنِ الطَّريق اللَّاحبِ

علمُ الكتاب وعلمُ الآثارِ الَّتي
قد أُسندت عن تابعٍ عن صاحبِ

وقد كان هٰذا هو علم السَّلف ـ عليهم رحمة الله ـ، ثمَّ كَثُر الكلام بعدهم فيما لا ينفع، فالعلم في السَّلف أكثر، والكلام فيمن بعدهم أكثر.

قال حمَّاد بن زيد: قلتُ لأيوبَ السَّختيانيِّ: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدَّم؟ فقال: «الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدَّم أكثر».

المعقِد الخامس

سلوك الجادَّة الموصِلة إليه

لكلِّ مطلوبٍ طريقٌ يُوصل إليه، فمن سلك جادَّةَ مطلوبه أوقَفَتْهُ عليه، ومن عَدَلَ عنها لم يظفر بمطلوبه، وإنَّ للعلم طريقًا من أخطأها ضلَّ ولم يَنَلِ المقصود، وربما أصاب فائدةً قليلةً مع تعبٍ كثيرٍ.

وقد ذكر هٰذا الطَّريق بلفظٍ جامعٍ مانعٍ محمَّدُ مرتضىٰ بن محمَّدٍ الزَّبيديُّ ـ صاحب «تاج العروس» ـ في منظومةٍ له تُسمَّىٰ «ألفيَّة السَّنَد»، يقول فيها:

فـمـا حـوىٰ الـغـايـةَ فـي ألـفِ سَـنَـهْ
شـخـصٌ فَـخُـذْ مـن كـلِّ فـنٍّ أحـسـنـهْ

بـحـفـظ مـتـنٍ جـامـعٍ لـلـرَّاجـحِ
تـأخـذُه عـلـىٰ مـفـيـدٍ نـاصـحِ

فطريق العلم وجادَّتُه مبنيَّةٌ علىٰ أمرين، من أخذ بهما كان معظِّما للعلم؛ لأنَّه يطلبه من حيث يُمكن الوصول إليه:

فأمَّا الأمر الأوَّل: فحفظ متنٍ جامعٍ للرَّاجح، فلا بدَّ من حفظٍ، ومن ظنَّ أنَّه يَنال العلم بلا حفظٍ فإنَّه يطلب مُحالًا.

والمحفوظ المعوَّل عليه هو المتن الجامع للرَّاجح؛ أي المعتمد عند أهل الفنِّ.

وأمَّا الأمر الثَّاني: فأخذه علىٰ مفيدٍ ناصحٍ، فتفزع إلىٰ شيخٍ تتفهَّمُ عنه معانيَه، يتَّصف بهذين الوصفين:

وأوَّلهما: الإفادة، وهي الأهليَّة في العلم، فيكونُ ممَّن عُرف بطلب العلم وتلقِّيه حتَّىٰ أدرك، فصارت له مَلَكةٌ قويَّةٌ فيه.

والأصل في هٰذا ما أخرجه أبو داود في «سننه» بإسنادٍ قويٍّ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تسمعون، ويُسمع منكم، ويُسمع ممَّن يَسمع منكم**».

والعبرة بعموم الخطاب، لا بخصوص المخاطَب، فلا يزال من معالم العلم في هٰذه الأُمَّة أن يأخذه الخالف عن السَّالف.

أمَّا الوصف الثَّاني فهو النَّصيحة، وتجمع معنيين ٱثنين:

أحدهما: صلاحية الشَّيخ للاقتداء به، والاهتداء بهديه ودَلِّه وسَمْته.

والآخر: معرفته بطرائق التَّعليم، بحيث يُحسِن تعليمَ المتعلِّم، ويعرف ما يَصلُح له وما يضرُّه، وَفق التَّربية العلميَّة الَّتي ذكرها الشَّاطبيُّ في «الموافقات».

المعقِد السَّادس

رعاية فنونه في الأخذ، وتقديم الأهمِّ فالمهمِّ

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صيد خاطره»:

«جمعُ العلوم ممدوحٌ».

من كلِّ فنٍّ خُذْ ولا تجهل بهِ

فالحرُّ مُطَّلِعٌ على الأسرارِ

ويقول شيخ شيوخنا محمَّدٌ ابن مانعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في «إرشاد الطُّلَّاب»:

«ولا ينبغي للفاضل أن يترك علمًا من العلوم النَّافعة، الَّتي تُعين علىٰ فهم الكتاب والسُّنَّة، إذا كان يعلم من نفسه قوَّةً علىٰ تعلُّمه، ولا يَسوغ له أن يعيب العلمَ الَّذي يجهله ويُزريَ بعالمه؛ فإنَّ هٰذا نقصٌ ورذيلةٌ، فالعاقل ينبغي له أن يتكلَّم بعلمٍ أو يسكت بحلمٍ، وإلَّا دخل تحت قول القائل:

أتـــانـــي أنَّ ســـهـــلًا ذمَّ جـــهـــلًا
عـلـومًـا لـيـس يـعـرفـهـنَّ سـهـلُ
عـلـومًـا لـو قـراهـا مـا قـلاهـا
ولـكـنَّ الـرِّضـا بـالـجـهـل سـهـلُ

انتهىٰ كلامه.

وإنَّما تنفع رعاية فنون العلم باعتماد أصلين:

أحدهما: تقديم الأهمِّ فالمهمِّ، ممَّا يفتقر إليه المتعلِّم في القيام بوظائف العبوديَّة لله.

والآخر: أن يكون قصدُه في أوَّل طلبه تحصيلَ مختصرٍ في كلِّ فنٍّ، حتَّىٰ إذا ٱستكمل أنواع العلوم النَّافعة؛ نظر إلىٰ ما وافق طبعه منها، وآنس من نفسه قدرةً عليه، فتبحَّر فيه، سواءٌ كان فنًّا واحدًا أم أكثر.

ومن طيَّار شعرِ الشَّناقطة قولُ أحدهم:

وإن تُـرِد تـحـصـيـلَ فـنٍّ تـمِّـمـهْ
وعـن سـواه قـبـل الٱنـتـهـاءِ مَـهْ
وفـي تـرادف الـعـلـوم الـمـنـعُ جـا
إن تـوأمـانِ ٱسـتـبـقـا لـن يـخـرجـا

ومن عرف من نفسه قدرةً علىٰ الجمعِ جَمَعَ، وكانت حاله ٱستثناءً من العموم.

المعقِد السَّابع
المبادرة إلىٰ تحصيله، واغتنام سِنِّ الصِّبا والشَّباب

قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما شبَّهتُ الشَّباب إلَّا بشيءٍ كان في كُمِّي فسقط».

والعلم في سنِّ الشَّباب أسرع إلىٰ النَّفس، وأقوىٰ تعلُّقًا ولصوقًا.

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم في الصِّغر كالنَّقش في الحَجَر».

فقوَّة بقاء العلم في الصِّغر، كقوَّة بقاء النَّقش في الحَجَر، فمن اغتنم شبابه نال إرْبَه، وحَمِد عند مشيبه سُراه.

اغتنم سِنَّ الشَّبابِ يا فتىٰ
عند المشيب يَحْمَدُ القوم السُّرىٰ

ولا يُتوهَّم ممَّا سبق أنَّ الكبير لا يتعلَّم، بل هٰؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ تعلَّموا كبارًا.

ذكره البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب العلم من «صحيحه».

وإنَّما يعسر التَّعلُّم في الكِبَر ـ كما بَيَّنه الماورديُّ في «أدب الدُّنيا والدِّين» ـ؛ لكثرة الشَّواغل، وغلبة القواطع، وتكاثر العلائق، فمن قدِر علىٰ دفعها عن نفسه أدرك العلم.

المعقِد الثَّامن
لزوم التَّأنِّي في طلبه، وترك العَجَلة

إنَّ تحصيل العلم لا يكون جملةً واحدةً؛ إذ القلب يضعف عن ذلك؛ وإنَّ للعلم فيه ثِقَلًا كثِقَل الحَجَر في يد حامله.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المُزمِّل] أي القرآن، وإذا كان هٰذا وصف القرآن الميسَّر ـ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القَمَر: الآية ١٧] ـ؛ فما الظنُّ بغيره من العلوم؟!

وقد وقع تنزيل القرآن رعايةً لهٰذا الأمر مُنَجَّمًا مفرَّقًا؛ باعتبار الحوادث والنَّوازل، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفُرقان].

وهٰذه الآية حجَّةٌ في لزوم التَّأنِّي في طلب العلم، والتَّدرُّج فيه، وترك العَجَلة؛ كما ذكره الخطيب البغداديُّ في «الفقيه والمتفقِّه»، والرَّاغب الأصفهانيُّ في مقدِّمة «جامع التَّفسير».

ومن شعر ابن النَّحَّاس الحلبيِّ قولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

اليومَ شيءٌ وغدًا مثلُهُ
من نُخَب العلم الَّتي تُلْتَقطْ

يُحصِّل المرء بها حكمةً
وإنَّما السَّيل اجتماع النُّقَطْ

ومقتضىٰ لزومِ التَّأنِّي والتَّدرُّجِ: البَداءةُ بالمتون القصار المصنَّفةِ في فنون العلم، حفظًا واستشراحًا، والميلُ عن مطالعة المطوَّلات التَّي لم يرتفعِ الطَّالب بعدُ إليها.

ومن تعرَّض للنَّظر في المطوَّلات فقد يجني علىٰ دينه، **وتجاوزُ الاعتدال في العلم ربَّما أدَّىٰ إلىٰ تضييعه**، ومن بدائع الحِكَم قول عبد الكريم الرِّفاعيِّ ـ أحد شيوخ العلم بدمشقَ الشَّام في القرن الماضي ـ: «**طعام الكبار سمٌّ الصِّغار**».

المعقِد التَّاسع

الصَّبر في العلم تحمُّلًا وأداءً

إذ كلُّ جليلٍ من الأمور لا يُدرك إلَّا بالصَّبر، وأعظم شيءٍ تتحمَّلُ به النَّفسُ طلبَ المعالي: تصبيرُها عليه؛ ولهذا كان الصَّبر والمصابرة مأمورًا بهما لتحصيل أصل الإيمان تارةً، ولتحصيل كماله تارةً أُخرىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

قال يحيىٰ بن أبي كثيرٍ في تفسير هٰذه الآية: «هي مجالس الفقه».

ولن يُحصِّل أحدٌ العلمَ إلَّا بالصَّبرِ.

قال يحيىٰ بن أبي كثير أيضًا: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم».

فبالصَّبر يُخرَج من معرَّة الجهل، وبه تُدرَك لذَّة العلم.

وصبر العلم نوعان:

أحدهما: صبرٌ في تحمُّله وأخذه؛ فالحفظ يحتاج إلىٰ صبرٍ، والفهم يحتاج إلىٰ صبرٍ، وحضور مجالس العلم يحتاج إلىٰ صبرٍ، ورعاية حقِّ الشَّيخ تحتاج إلىٰ صبرٍ.

والنَّوع الثَّاني: صبرٌ في أدائه وبثِّه وتبليغه إلىٰ أهله؛ فالجلوس للمتعلِّمين يحتاج إلىٰ صبرٍ، وإفهامُهم يحتاج إلىٰ صبرٍ، واحتمالُ زلَّاتهم يحتاج إلىٰ صبرٍ.

وفوق هذين النَّوعين من صبر العلم؛ الصَّبرُ علىٰ الصَّبر فيهما، والثَّبات عليهما.

لكلٍّ إلىٰ شَأْوِ العُلا وَثَباتُ
ولٰكنْ عزيزٌ في الرِّجال ثباتُ

المعقِد العاشر

ملازمة آداب العلم

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «مدارج السَّالكين»:

«أدبُ المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقِلَّةُ أدبه عنوان شقاوته وبَوَاره، فما ٱستُجْلِبَ خير الدُّنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا ٱستُجْلِب حرمانهما بمثل قِلَّة الأدب».

والمرء لا يسمو بغير الأدبِ
وإن يكن ذا حَسَبٍ ونسبِ

وإنَّما يصلُح للعلم من تأدَّب بآدابه في نفسه ودرسه، ومع شيخه وقرينه.

قال يوسف بن الحسين: «بالأدب تفهم العلم».

لأنَّ المتأدِّب يُرىٰ أهلًا للعلم فَيُبذلُ له، وقليل الأدب يُعزُّ العلمُ أن يُضيَّعَ عنده.

ومن هنا كان السَّلف ـ رحمهم الله ـ يعتنون بتعلُّم الأدب، كما يعتنون بتعلُّم العلم.

قال ابن سيرينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانوا يتعلَّمون الهدي كما يتعلَّمون العلم».

بل إنَّ طائفةً منهم يُقدِّمون تعلُّمه علىٰ تعلُّم العلم.

قال مالك بن أنسٍ لفتًى من قريشٍ: «يا ابن أخي، تعلَّمِ الأدب قبل أن تتعلَّمَ العلم».

وكانوا يُظهِرون حاجتهم إليه.

قال مَخْلَد بنُ الحسين لابنِ المبارك يومًا: «نحن إلىٰ كثيرٍ من الأدب أحوج منَّا إلىٰ كثيرٍ من العلم».

وكانوا يُوصون به، ويُرشدون إليه.

قال مالكٌ: «كانت أُمِّي تُعَمِّمُني، وتقول لي: ٱذهبْ إلىٰ ربيعةَ ـ تعني ابنَ أبي عبد الرَّحمن فقيهَ أهلِ المدينة في زمنه ـ فتعلَّمْ من أدبه قبل علمه».

وإنما حُرِم كثيرٌ من طلبة العصر العلمَ بتضييع الأدب.

أشرفَ اللَّيث بن سعدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ أصحاب الحديث، فرأىٰ منهم شيئًا كأنَّه كرهه، فقال: «ما هٰذا؟! أنتم إلىٰ يسيرٍ من الأدب، أحوج منكم إلىٰ كثيرٍ من العلم».

فماذا يقول اللَّيث لو رأىٰ حال كثيرٍ من طلَّاب العلم في هٰذا العصر؟!

المعقِد الحاديَ عشرَ

صيانة العلم عمَّا يَشين، ممَّا يُخالف المروءة ويخرِمها

من لم يَصُنِ العلمَ لم يَصُنْهُ العلمُ ـ كما قال الشَّافعيُّ ـ ومن أخلَّ بالمروءة بالوقوع فيما يَشين فقد ٱستخفَّ بالعلم، فلم يُعظِّمْه ووقع في البَطالة، فتُفضي به الحال إلىٰ زوال ٱسم العلم عنه.

قال وهب بن منبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يكون البطَّال من الحكماء».

وجِماع المروءة ـ كما قاله ابن تيميَّة الجدُّ في «المحرَّر»، وتبعه حفيده في بعض فتاويه ـ: «استعمال ما يُجمِّله ويَزِينه، وتجنُّبُ ما يُدنِّسه ويَشِينه».

قيل لأبي محمَّدٍ سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ: قدِ ٱستنبطتَ من القرآن كلَّ شيءٍ، فأين المروءةُ فيه؟ فقال: «في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعرَاف]؛ ففيه المروءة، وحسن الأدب، ومكارم الأخلاق».

ومِن أَلْزَمِ أدبِ النَّفس للطَّالب: تحلِّيه بالمروءة، وما يحمِل عليها، وتنكُّبُه خوارمها الَّتي تخلُّ بها؛ كحلق لحيته، أو كثرةِ الالْتفات في الطَّريق، أو مدِّ الرِّجلين في مَجْمَعِ النَّاس من غير حاجةٍ ولا ضرورةٍ داعيةٍ، أو صحبةِ الأراذل والفسَّاق والمُجَّان والبطَّالين، أو مصارعةِ الأحداث والصِّغار.

المعقِد الثَّانيَ عشرَ
ٱنتخاب الصُّحبة الصَّالحة له

اتِّخاذ الزَّميل ضرورةٌ لازمةٌ في نفوس الخلق، فيحتاج طالب العلم إلىٰ معاشرة غيره من الطُّلَّاب؛ لِتُعِينَه هٰذه المعاشرة علىٰ تحصيل العلم والاجتهاد في طلبه.

والزَّمالة في العلم إن سَلِمت من الغوائل نافعةٌ في الوصول إلىٰ المقصود.

ولا يَحسُنُ بقاصد العلا إلَّا ٱنتخاب صحبةٍ صالحةٍ تُعينه؛ فإنَّ للخليل في خليله أثرًا.

روى أبو داودَ والتِّرمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الرَّجل علىٰ دين خليله، فلينظرْ أحدكم من يُخالِل**».

قال الرَّاغب الأصفهانيُّ: «ليس إعداء الجليس لجليسه بمقاله وفعاله فقط، بل بالنَّظر إليه».

وإنَّما يُختار للصُّحبة من يُعاشِر للفضيلة لا للمنفعة ولا للَّذَّة؛ فإنَّ عَقْد المعاشرة يُبرَم علىٰ هٰذه المطالب الثَّلاثة: الفضيلة، والمنفعة، واللَّذَّة.

ذكره شيخ شيوخنا محمدُ الخضرِ بنُ حسينٍ في «رسائل الإصلاح» .

فانتخب صديق الفضيلة زميلًا ؛ فإنَّك تُعْرَفُ به.

وقال ابنُ مانعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في «إرشاد الطُّلَّاب» ـ وهو يوصي طالب العلم ـ:

«ويَحْذَر كلَّ الحذر من مخالطة السُّفهاء، وأهلِ المجون والوقاحة، وسيِّئي السُّمعة، والأغبياء، والبُلَداء؛ فإنَّ مخالطتهم سبَبُ الحرمانِ وشقاوةِ الإنسان».

المعقِد الثَّالثَ عشرَ
بذل الجهد في تحفُّظِ العلم، والمذاكرة به، والسُّؤال عنه

إذ تلقِّيه عن الشُّيوخ لا ينفع بلا حفظٍ له، ومذاكرةٍ به، وسؤالٍ عنه؛ فهؤلاء تُحقِّق في قلب طالب العلم تعظيمَه؛ بكمال الالْتفات إليه والاشتغال به، فالحفظ خَلوةٌ بالنَّفس، والمذاكرة جلوسٌ إلىٰ القرين، والسُّؤال إقبالٌ علىٰ العالم.

ولم يزلِ العلماء الأعلام يحضُّون علىٰ الحفظ ويأمرون به.

سمعت شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «حفظنا قليلًا وقرأنا كثيرًا، فانتفعنا بما حفظنا أكثرَ منِ ٱنتفاعنا بما قرأنا».

وبالمذاكرة تدوم حياة العلم في النَّفس، ويقوىٰ تعلُّقه بها، والمراد بالمذاكرة مدارسة الأقران.

وقد أُمرنا بتعاهد القرآن الَّذي هو أيسر العلوم.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما مَثَلُ صاحبِ القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلَة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**».

قال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «التَّمهيد» عند هٰذا الحديث:

«وإذا كان القرآن الميسَّر للذِّكر كالإبل المعقَّلَةِ، من تَعَاهَدَها أمسكها، فكيف بسائر العلوم؟!»

وبالسُّؤال عن العلم تُفتتحُ خزائنه، فحُسْن المسألة نصف العلم، والسُّؤالات المصنَّفة ـ كمسائلِ أحمدَ المرويَّةِ عنه ـ برهانٌ جليٌّ علىٰ عظيم منفعة السُّؤال.

وهٰذه المعاني الثَّلاثة للعلم: بمنزلة الغرس للشَّجر وسقيه وتنميته بما يحفظ قوَّته ويدفع آفته، فالحفظ غَرس العلم، والمذاكرة سقيه، والسُّؤال عنه تنميته.

المعقِد الرَّابعَ عشرَ

إكرام أهل العلم وتوقيرهم

إنَّ فضل العلماء عظيمٌ، ومنصِبهم منصِبٌ جليلٌ؛ لأنَّهم آباء الرُّوح، فالشَّيخ أبٌ للرُّوح كما أنَّ الوالد أبٌ للجسد، فالاعتراف بفضل المعلِّمين حقٌّ واجبٌ.

فال شعبةُ بن الحجَّاج: «كلُّ مَن سمعتُ منه حديثًا؛ فأنا له عبدٌ».

واستنبَط هٰذا المعنىٰ من القرآن محمَّدُ بن عليٍّ الأُدْفُويُّ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا تعلَّم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد، فهو له عبدٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: الآية ٦٠]، وهو يُوشَع بنُ نونٍ، ولم يكن مملوكًا له، وإنَّما كان مُتَلْمِذًا له، متَّبعًا له، فجعله الله فتاه لذلك».

وقد أمر الشَّرع برعاية حقِّ العلماء؛ إكرامًا لهم، وتوقيرًا، وإعزازًا.

فروى أحمد في «المسند» عن عبادةَ بنِ الصَّامت رضي الله عنه؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أُمَّتي من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرفْ لعالمنا حقَّه**».

ونقل ابن حزمٍ الإجماعَ علىٰ توقير العلماء وإكرامهم.

فمن الأدب اللَّازم للشَّيخ علىٰ المتعلِّم ـ ممَّا يدخل تحت هٰذا الأصل ـ التَّواضعُ له، والإقبالُ عليه، وعدمُ الٱلتفاتِ عنه، ومراعاةُ أدب الحديث معه، وإذا حدَّث عنه عظَّمه من غير غُلوٍّ، بل يُنزلُهُ منزلَتَه؛ لئلَّا يَشينه من حيث أراد أن يمدحه، وليشكرْ تعليمَه ويدعُ له، ولا يُظهرِ الٱستغناءَ عنه، ولا يُؤذِهِ بقولٍ أو فعلٍ، ولْيتلطَّفْ في تنبيهه علىٰ خطئه إذا وقعت منه زلَّةٌ.

وممَّا تُناسب الإشارة إليه هنا ـ باختصار وجيزٍ ـ معرفةُ الواجب إزاءَ زلَّة العالم، وهو ستَّة أمورٍ:

الأوَّل: التَّثبُّت في صدور الزَّلَّة منه.

والثَّاني: التَّثبُّت في كونها خطأً، وهٰذه وظيفة العلماء الرَّاسخين، فيُسألون عنها.

والثَّالث: ترك ٱتِّباعه فيها.

والرَّابع: التماس العذر له بتأويلٍ سائغٍ.

والخامس: بذل النُّصح له بلطفٍ وسرٍّ، لا بعنفٍ وتشهيرٍ.

والسَّادس: حفظ جَنابه، فلا تُهدَرُ كرامته في قلوب المسلمين.

وممَّا يُحذَّرُ منه ممَّا يتَّصل بتوقير العلماء؛ ما صورته التَّوقير ومآله الإهانة والتَّحقير، كالازدحامِ علىٰ العالم، والتَّضييقِ عليه، وإلجائه إلىٰ أعسر السُّبل.

المعقِد الخامسَ عشرَ

ردُّ مُشْكِلِه إلىٰ أهله

فالمعظِّم للعلم يُعوِّل علىٰ دَهاقنته والجهابذةِ من أهله لحلِّ مشكلاته، ولا يُعَرِّضُ نفسه لما لا تُطيق؛ خوفًا من القول علىٰ الله بلا علمٍ، والافتراءِ علىٰ الدِّين، فهو يخاف سَخْطَة الرَّحمن قبل أن يخاف سَوط السُّلطان؛ فإنَّ العلماء بعلمٍ تكلَّموا، وببصرٍ نافذٍ سكتوا، فإن تكلَّموا في مُشْكِلٍ فتكلَّمْ بكلامهم، وإن سكتوا عنه فَلْيَسَعْكَ ما وَسِعهم.

ومن أشقِّ المُشْكلاتِ الفتنُ الواقعة، والنَّوازلُ الحادثة، الَّتي تتكاثر مع ٱمتداد الزَّمن.

والنَّاجون من نار الفتن، السَّالمون من وَهَج المِحَن، هم مَن فَزِع إلىٰ العلماء ولَزِم قولهم، وإن ٱشتبه عليه شيءٌ من قولهم أحسن الظَّنَّ بهم، فطرح قولهَ وأخذ بقولهم، فالتَّجرِبَة والخِبْرة هم كانوا أحقَّ بها وأهلَها، وإذا ٱختلفت أقوالُهم لزم قولَ جمهورهِم وسوادهِم؛ إيثارًا للسَّلامة؛ **فالسَّلامة لا يعدِلها شيءٌ.**

وما أحسن قولَ ابن عاصمٍ في «مرتقىٰ الوصول»:

وواجبٌ في مشكلاتِ الفهمِ
تحسينُنا الظَّنَّ بأهل العلمِ

ومن جملة المشكلات ردُّ زلَّاتِ العلماء، والمقالاتِ الباطلة لأهل البدع والمخالفين؛ فإنَّما يتكلَّم فيها العلماء الرَّاسخون.

بيَّنه الشاطبيُّ في «الموافقات»، وابن رجبٍ في «جامع العلوم والحكم».

فالجادَّة السَّالمة: عرْضُها علىٰ العلماء الرَّاسخين، والاستمساك بقولهم فيها.

المعقِد السَّادسَ عشرَ
توقير مجالس العلم، وإجلال أوعيته

فمجالس العلماء كمجالس الأنبياء.

قال سهل بن عبد الله: «من أراد أن ينظر إلىٰ مجالس الأنبياء فلينظر إلىٰ مجالس العلماء، يجيءُ الرَّجل فيقول: يا فلان، أيُّ شيءٍ تقول في رجل حلف علىٰ ٱمرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طَلَقَت ٱمرأته، ويجيءُ آخر فيقول: ما تقول في رجلٍ حلف علىٰ ٱمرأته بكذا وكذا؟ فيقول: ليس يحنَث بهٰذا القول، وليس هٰذا إلَّا لنبيٍّ أو لعالمٍ، فاعرفوا لهم ذلك».

فعلىٰ طالب العلم أن يعرِف لمجالس العلم حقَّها، فيجلِسَ فيها جِلسة الأدب، ويصغي إلىٰ الشَّيخ ناظرًا إليه؛ فلا يلتفت عنه من غير ضرورةٍ، ولا يضطرب لضجَّةٍ يسمعها، ولا يعبَثُ بيديه أو رجليه، ولا يستَنِدُ بحضرة شيخه، ولا يتَّكئُ علىٰ يده، ولا يُكثر التَّنحنح والحركة، ولا يتكلَّم مع جاره، وإذا عطس خَفَض صوته، وإذا تثاءب ستر فمه بعد ردِّه جَهْده.

وينضمُّ إلىٰ توقير مجالس العلم إجلالُ أوعيته الَّتي يُحفظ فيها، وعمادها الكتب، فاللَّائق بطالب العلم: صونُ كتابه، وحفظُه وإجلالُه، والاعتناءُ به، فلا يجعلْهُ صندوقًا يحشوه بودائعه، ولا يجعلْهُ بوقًا، وإذا وضعه وضعه بلطفٍ وعنايةٍ.

رمىٰ إسحاق بن راهَوَيْه يومًا بكتابٍ كان في يده، فرآه أبو عبد الله أحمد ابن حنبلٍ فغضب، وقال: «أهكذا يُفعل بكلام الأبرار؟!».

ولا يتَّكئُ علىٰ الكتاب، أو يضعُهُ عند قدميه، وإذا كان يقرأ فيه علىٰ شيخٍ رفعه عنِ الأرض، وحَمَلَهُ بيديه.

المعقِد السَّابعَ عشرَ

الذَّبُّ عن العلم، والذَّود عن حِياضه

إنَّ للعلم حُرمةً وافرةً، توجب الٱنتصارَ له إذا تُعرِّض لجنَابه بما لا يصلحُ.

وقد ظهر هٰذا الٱنتصار عند أهل العلم في مظاهرَ؛ منها: الرَّدُّ علىٰ المخالف، فمن ٱستبانت مخالفته للشَّريعة رُدَّ عليه كائنًا من كان؛ حَمِيَّةً للدِّين، ونصيحةً للمسلمين.

ومنها: هجرُ المبتدعِ؛ ذكره أبو يعلىٰ الفرَّاء إجماعًا.

فلا يُؤخذ العلم عن أهل البدع؛ لٰكن إذا ٱضْطُرَّ إليه فلا بأس، كما في الرِّواية عنهم لدىٰ المحدِّثين.

ومنها: زجر المتعلِّم إذا تعدَّىٰ في بحثه، أو ظهر منه لَدَدٌ أو سوءُ أدبٍ.

وإن ٱحتاج المعلِّم إلىٰ إخراج المتعلِّم من مجلسه؛ زجرًا له فليفعل كما كان يفعله شعبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع عفَّانَ بن مسلمٍ في درسه.

وقد يُزجر المتعلِّم بعدمِ الإقبال عليه، وتركِ إجابته، فالسُّكوت جوابٌ؛ قاله الأعمش.

ورأينا هٰذا كثيرًا من جماعةٍ من الشُّيوخ؛ منهم العلَّامة ابن بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فربَّما سأله سائلٌ عمَّا لا ينفعه، فترك الشَّيخ إجابَتَه، وأمر القارئ أن يواصل قراءته، أو أجابه بخلاف قصده.

المعقِد الثَّامنَ عشرَ
التَّحفُّظ في مسألة العالم

فرارًا من مسائل الشَّغْب، وحفظًا لهيبة العالم؛ فإنَّ من السُّؤال ما يُراد به التَّشغيبُ وإيقاظ الفتنة وإشاعة السُّوء، ومن آنس منه العلماء هٰذه المسائل لقي منهم ما لا يُعجبه، كما مرَّ معك في زجر المتعلِّم، فلا بدَّ من التَّحفُّظ في مسألة العالم، ولا يُفلح في تَحَفُّظه فيها إلَّا من أعمل أربعة أصولٍ:

أوَّلها: الفكر في سؤاله لماذا يسأل؟ فيكون قصده من السُّؤال التَّفقُّه والتَّعلُّم، لا التَّعنُّت والتَّهكُّم؛ فإنَّ من ساء قصده في سؤاله يُحرم بركةَ العلم، ويُمنع منفعته.

الأصل الثَّاني: التَّفطُّنُ إلىٰ ما يَسأل عنه؛ فلا تسأل عمَّا لا نفع فيه؛ إمَّا بالنَّظر إلىٰ حالك، أو بالنَّظر إلىٰ المسألة نفسها.

ومثله السُّؤال عمَّا لم يقع، أو ما لا يُحدَّث به كلُّ أحدٍ، وإنَّما يُخصُّ به قومٌ دون قومٍ.

الأصل الثَّالث: الانتباه إلىٰ صلاحية حال الشَّيخ للإجابة عن سؤاله، فلا يَسألُه في حالٍ تَمْنَعُهُ، ككونه مهمومًا، أو متفكِّرًا، أو ماشيًا في طريقٍ، أو راكبًا سيَّارَته، بل يتحيَّنُ طيب نفسه.

الأصل الرَّابع: تيقُّظ السَّائل إلىٰ كيفيَّة سؤاله، بإخراجه في صورةٍ حسنةٍ متأدِّبةٍ، فيُقدِّم الدُّعاء للشَّيخ ويُبجِّله في خطابه، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهلَ السُّوق وأخلاطَ العوام.

المعقِد التَّاسعَ عشرَ
شَغَفُ القلب بالعلم وَغَلَبَتُه عليه

فصدق الطَّلب له يوجب محبَّته، وتعلُّقَ القلب به، ولا ينال العبدُ درجةَ العلم حتَّىٰ تكون لذَّته الكبرىٰ فيه.

وإنَّما تُنال لذَّة العلم بثلاثة أمورٍ، ذكرها أبو عبد الله ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

أحدِها: بذل الوُسْع والجَهْد.

وثانيها: صدق الطَّلب.

وثالثِها: صحَّة النِّيَّة والإخلاص.

ولا تَتِمُّ هٰذه الأمور الثَّلاثة، إلَّا مع دفع كلِّ ما يُشْغِلُ عن القلب.

إنَّ لذَّة العلم فوق لذَّة السُّلطان والحكم الَّتي تتطلَّع إليها نفوسٌ كثيرةٌ، وتُبذَل لأجلها أموالٌ وفيرةٌ، وتُسفَك دماءٌ غزيرةٌ.

ولهذا كانت الملوك تتوقُ إلىٰ لذَّة العلم، وتُحِسُّ فقدَها، وتطلُب تحصيلَها.

قيل لأبي جعفرٍ المنصور ـ الخليفةِ العباسيِّ المشهور، الَّذي كانت ممالكه تملأ الشَّرق والغرب ـ: هل بقي من لذَّاتِ الدُّنيا شيءٌ لم تنله؟ فقال ـ وهو مستوٍ علىٰ كرسيِّه وسرير ملكه ـ: «بقيت خَصلةٌ: أن أقعُدَ علىٰ مِصْطَبَةٍ، وحولي أصحاب الحديث ـ أي طلَّابُ العلم ـ فيقول المستملي: مَن ذكرتَ رحمك الله؟»

يعني فيقول: حدَّثنا فلانٌ، قال: حدَّثنا فلانٌ، ويَسُوق الأحاديث المسندة.

ومتىٰ عُمِر القلب بلذَّة العلم سقطت لذَّاتُ العادات، وذهَلَتِ النَّفسُ عنها؛ بل تستحيل الآلامُ لذَّةً بهٰذه اللَّذَّة.

المعقِد العشرون
حفظ الوقت في العلم

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صيد خاطره»:

«ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يُضيِّع منه لحظةً في غير قُربةٍ، ويُقدِّم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل».

ومن هنا عظُمت رعاية العلماء للوقت، حتىٰ قال محمَّد بن عبد الباقي البزَّاز: «ما ضيَّعتُ ساعةً من عمري في لهوٍ أو لعبٍ».

وقال أبو الوفاء ابن عقيل ـ الذي صنَّف كتاب الفنون في ثمانمائة مجلَّدٍ ـ: «إنِّي لا يحِلُّ لي أن أُضيِّعَ ساعةً من عمري».

وبَلَغَتْ بهمُ الحال أن يُقرأ عليهم حال الأكل؛ بل كان يُقرأ عليهم وهم في دار الخلاء.

فاحفظ أيُّها الطَّالبُ وقتَك؛ فلقد أبلغ الوزيرُ الصَّالح ابنُ هُبيرة في نصحك بقوله:

والوقت أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه
وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ

تمَّتِ الخُلاصة

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي جعل للعلم أصولا، وسهَّل بها إليه الوصولا، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ما أُبرِزت أصول العلوم، وعلىٰ آله وصحبه ما بُيِّن المنطوق منها والمفهوم.

أما بعد:

فهٰذا **المجلس الأول في شرح الكتاب الأول، من برنامج أصول العلم في سنته الأولىٰ** ثلاث وثلاثين بعد الأربعمائة والألف (١٤٣٣) وأربع وثلاثين بعد الأربعمائة والألف (١٤٣٤)، وهو كتاب «**خلاصة تعظيم العلم**» لمُصنِّفه صالح بن عبد الله بن حَمَد العصيمي.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله المعظَّم بالتوحيد، وصلىٰ الله وسلَّم علىٰ عبده ورسوله محمد المخصوص بأجلِّ المزيد، وعلىٰ آله وصحبه أولي الفضل والرأي السديد.

أما بعد:

فهٰذه من كتابي «تعظيم العلم» خلاصة اللفظ، أُعدَّت بالتقاطها لمَقصد الحفظ، فاستُخرج منه للمنفعة المذكورة اللباب، وجُعل فيه الأُنموذج من كل باب، ليكون في نفوس الطلبة شمس النهار، ويترشَّحوا بعده إلىٰ العمل والادِّكار.

فأسأل الله لي ولهم لزوم معاقد التعظيم، والفوز بجوامع فضله العظيم.

من المطالب المُعتدِّ بها شرعا تعظيم شعائر الله، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[الحج]، ومن جملة شعائر الله العلم الوارد في الكتاب والسنة، ولا تُدرك هٰذه المطالب المُعظَّمة إلا بإمعان تعظيمها، واستعمال ما ينبغي شرعا وعُرفا فيها، ولمّا كان العلم واحدًا من تلك المطالب العظيمة المُتوقفة في إدراكها وحِيازتها علىٰ تعظيمها كان مما يُأمر به طالب العلم أن يلزم تعظيمه، لأنَّ حصول العلم لك علىٰ قدْر تعظيمك له كما سيأتي فيما يُستقبل.

ولمّا كان الأمر بهٰذه المنزلة كتب مصنِّف هٰذا الكتاب كتابا واسعا اسمه «تعظيم العلم» ثم اختصر منه هٰذه الجملة التي وصفها بقوله: (خلاصة اللفظ) والمراد بالخلاصة نُقاية الشيء، فالواجب في هٰذا الكتاب نُقاية الألفاظ المتعلِّقة بتعظيم العلم مما ورد في الأصل.

وحَمَلَ المصنِّفَ علىٰ ذلك ما ذكره بقوله: (أُعدَّت بالتقاطها لمَقصد الحفظ) أي حمَلَ علىٰ تلخيص الكتاب الأصل إعدادُ جملة من الكلام يسهُل حفظها؛ لأن الكلام إذا أُريد حفظه قُلِّل، والآية الشَّاهدة علىٰ ذلك هي القرآن الكريم، فإن الله ﷻ قادر أن يُنزِّل من الآيات ما يكون مِلء دواوين الخلق قاطبة، لكن لمّا كانت منفعة الخلق بالقرآن تتوقف علىٰ معرفته، وممَّا يُعين علىٰ معرفته حفظه قُلِّل لفظه جمعا لمقاصده المرادة فيه، فما أُريد حفظه من الكلام استُحب تقليله ليُستعان بذلك علىٰ حفظه.

ثم قال: (فاستُخرج منه) أي من «تعظيم العلم» (للمنفعة المذكورة) وهي الحفظ (اللُّباب) أي خالص الكتاب، فإنَّ لُباب الشيء خالصه، (وجُعل فيه الأُنموذج من كلِّ باب) أي جُعل في كل باب من هٰذا

المختصر أنموذج دال علىٰ مافي الأصل، **والأنموذج هو المثال الذي يُحتذىٰ**، واختلف في عربيتها وأقدم الكتب المصنَّفة بهٰذا الاسم هو كتاب «الأنموذج في النحو» للزمخشري، واستُدل بذلك علىٰ ترجيح فصاحته لإمامة الزمخشري في اللغة، وكيفما كان فإنه وإن كان أصله أعجميا في قول جماعة من أهل العربية، إلاَّ أنه عُرِّب وصار لفظا موضوعا للدلالة علىٰ المثال الذي يُحتذىٰ به.

ثم علَّل اقتصاره علىٰ الأنموذج من كل باب بقوله: (ليكون في نفوس الطلبة شمس النهار) أي: الأمر الواضح، فإنَّ شمس النهار بيِّنة جليّة، وإذا وُصف شيء بأنه شمس النهار أو كشمس النهار، فالمراد الإعلام بأنه بيِّن واضح جليّ.

ثم قال: (ويترشحوا) أي يتهيَّأوا (بعده إلىٰ العمل والادِّكار) أي الاتِّعاظ والانتفاع به، وأصلها الاذدكار ثم أُبدلت الذال دالا وأُدغمت في الأخرىٰ فقيل الادِّكار، والمقصود به الاتِّعاظ والانتفاع والاعتبار بما يُذكر، فقُلِّلَ الأصل في لفظه واقتُصر من كل باب علىٰ لُبابه ليكون الكتاب بيِّنًا واضحًا في نفوس الطلبة إذا حفظوه ويتهيّؤوا بعد حفظه إلىٰ العمل بِمُضَمَّنِه والاعتبار به.

ثم ختم ديباجة كتابه بسؤال الله له ولمن تلقىٰ عنه بـ(لزوم معاقد التعظيم)، وسيأتي بيان معناها، (والفوز بجوامع فضله العظيم) فنسأل الله ﷻ أن يرزقنا تعظيم العلم وأن يشملنا سبحانه بفضله العَميم.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ، وعلىٰ آله وصحبه عدد من تعلم وعلَّم.

أمَّا بعد:

فإن حظ العبد من العلم موقوف علىٰ حظ قلبه من تعظيمه وإجلاله، فمن امتلأ قلبه بتعظيم العلم وإجلاله، صلُح أن يكون محلاًّ له، وبقدْر نقصان هيْبة العلم في القلب، ينقص حظّ العبد منه، حتىٰ يكون من القلوب قلب ليس فيه شيء من العلم.

فمن عظَّم العلم لاحَت أنواره عليه، ووَفدَت رسل فنونه إليه، ولم يكن لِهمَّته غاية إلا تلقيه، ولا لنفسه لذة إلا الفكر فيه، وكأن أبا محمد الدارمي الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمح هٰذا المعنىٰ، فختم كتاب العلم من سننه المسماة بـ «المسند الجامع» بباب في إعظام العلم.

و أعون شيء علىٰ الوصول إلىٰ إعظام العلم وإجلاله: معرفة معاقد تعظيمه، وهي الأصول الجامعة، المُحققة لعظمة العلم في القلب، فمن أخذ بها كان معظِّما للعلم مُجلًّا له، ومن ضيَّعها فلنفسه أضاع، ولهواه أطاع، فلا يلومنَّ ـ إن فتر إلا نفسه –، (يداك أوكتا وفوك نفخ) ومن لا يكرم العلم لا يكرمه العلم.

ذكر المصنِّف وفقه الله أن نصيب العبد من العلم الذي أشار إليه بقوله: (فإن حظ العبد من العلم) أي نصيبه منه (موقوف علىٰ حظ قلبه من تعظيمه وإجلاله) أي مُرتهِنٌ به، فبقدر ما يكون في قلبك من تعظيم الله وإجلاله تنال العلم (فمن امتلأ قلبه بتعظيم العلم وإجلاله صلح أن يكون محلا له) أي تهيّأ أن يكون موضعا للعلم، لأنَّ القلوب تفتقر إلىٰ تهيئتها للعلم كما تفتقر الأرض الجرداء إلىٰ تهيئتها للزرع، فإن من عَمَدَ إلىٰ أرض جرداء ووضع فيها البذر بالنَّثر وسكب عليها الماء بالقطر فإن الزرع لا ينبت، ولو أنبت لا يثمر ولو أثمر لم يُكثر، فكذلك القلب إذا لم يُهيّأ للعلم فإنه لا ينتفع به ولا يجد بُغيته منه، ومفتاح تهيئة القلب بالعلم أن تغرِس فيه إجلال العلم وإعظامه، فإنك تناله وَفق ما لقلبك من إجلال العلم وتعظيمه، ومن نقَصَت هيْبة العلم في قلبه نقص حظّه من العلم (حتىٰ يكون من العلم قلب ليس فيه شيء من العلم) فربما رأيتَه غادِيًا رائِحا مُقبلا مُدبرا علىٰ حِلق العلم وجمع كتبه ثم يَعُدّ نفسه بعد مدة صُفْرَ اليدين منه،

وإنما أُتِي العبد من نفسه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤] قال بعض السلف: (يريد أن يهتدي فلا يهتدي، ويريد أن يتوب فلا يتوب) انتهىٰ كلامه.

ومثله يريد أن يطلب العلم فلا يُوفَّق إليه، لأنه لا ينال العلم بجودة الفهم وقوة الحفظ وإنما يُنال العلم بالعطِيَّة الإلهية والمِنحة الربانية، إذ العلم مَحْض فضل الله ﷻ وإذا سَبَرْتَ الآي والأحاديث التي ورد فيها حَوْز العلم ونيله وجدت في ألفاظها ما يدل علىٰ أنه مِنَّة من الله ﷻ، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾[الأعراف:١٧٥]، فهو لم يَحُزْها بقدرته وإنما بفضل الله ومنحه له، فكذلك إذا حُرِم العبد العلم فإنما حُرِم بما قدّمه هو من نقصان العلم في قلبه قدْرا وهيبة وجلالا.

ثم قال: (فمن عظَّم العلم لاحت أنواره عليه) أي ظهرت أنواره عليه (ووفدت) أي قدمت (رسل فنونه إليه، ولم يكن لهمته غاية إلا تلقيه، ولا لنفسه لذة إلا الفكر فيه) ولا ينال هٰذا المقام إلَّا من صلُح قلبه لذلك، فإنَّ المرء ربما يكون له إقبالٌ علىٰ العلم، إلا أنه لا يجد منه لذّة ولا يُمعِن فيه فِكره؛ لأنَّ قلبه لم يصلح بعدُ أن يكون وِعاءً حاملا له، وإنما يكون صالحا لذلك إذا كان مُعظِّما للعلم.

ثم قال: (و كأن أبا محمد الدارمي الحافظ رَحِمَهُ اللهُ لمح هٰذا المعنىٰ، فختم كتاب العلم من سننه المسماة بـ «المسند الجامع» بباب في إعظام العلم) فآخر كتاب العلم من «سنن الدارمي» باب إعظام العلم، وهٰذه ترجمة جليلة دالة علىٰ عُلوِّ المعنىٰ الذي أراد الدَّارمي أن يُنبِّه إليه، فمهما أخذت ما تقدّم من الأبواب المُبيِّنة فضل العلم وطرائق تحصيله وأحوال أهله وأخلاقهم فإنك إنْ لم تُعظِّم العلم لم تنل العلم.

ثم قال بعده: (وأعون شيء) أي أكثر شيء إعانة علىٰ(الوصول إلىٰ إعظام العلم وإجلاله: معرفة معاقد تعظيمه)

ثم بيَّن معنىٰ المعاقد بقوله: (و هي الأصول الجامعة، المحققة لعظمة العلم في القلب) يعني أن المراد بمعاقد تعظيم العلم: (الأصول الجامعة، المحققة لعظمة العلم في القلب، فمن أخذ بها كان معظِّما للعلم مُجلاًّ له، ومن ضيعها فلنفسه أضاع، ولهواه أطاع، فلا يلومن ـ إن فتر إلا نفسه –، (يداك أوكتا وفوك نفخ) ومن لا يكرم العلم لا يكرمه العلم) أي أن العبد إذا أخذ بهٰذه الأصول الآتي ذكرها من معاقد تعظيم العلم فإنه يكون مُجلّا للعلم مُعظِّمًا له، فإذا أعملت هٰذه الأصول ونظائرها مما يتعلق بإجلال العلم كنت

مُعظِّمًا فنِلْتَه، وإن لم تكن كذلك مُضيِّعًا لها فلا تلومنَّ إن انقطعت عن العلم إلا نفسك، كما قيل في المثل: ((يداك أوكتا وفوك نفخ) ومن لا يكرم العلم لا يكرمه العلم) وإذا تحقَّقتَ أنَّ العلم كما سلف مِنَّة ربانية وهِبة إلٰهية والله هو الكريم الأكرم فانظُر إلىٰ حالك في سؤاله ﷻ؛ لأنَّ من أدْمن طَرْق الباب فُتح له؛ ولكنّ الطَّرْق يحتاج إلىٰ صدق، فإنَّ من الطارقين من يعتذر علىٰ الموافقة علىٰ موعد بأن يأتي إلىٰ من ضرب معه موعدًا فَيَطْرُقُ بابه طرْقا لطيفا لا يريد تنبيهه وإنما يريد تقديم العذر إذا لامه بتَغَيُّبه بأن يقول: قد أتيتك فطرقت الباب فلم تَرُدَّ عليّ، فإذا كان الطرْق قويًّا دلّ علىٰ الصدق، فمن أدمَن باب الكريم ﷻ بإقبال وصدق فإن الله ﷻ لا يَرُدُّ من أقبل عليه، وإذا كان المقصود من الخلق ممَّن وُصف بالكَرَم يستحي أن يَرُدَّ من سأله فإن الله ﷻ أكمل في عطيَّته وأجزل في موهبته من أكرم الخلق قاطبة، فالشأن في صدق السؤال وكمال الإقبال، فأسأله ﷻ أن يرزقنا كمال الصدق معه وكمال الإقبال عليه.

المعقد الأول

تطهير وعاء العلم

وهو القلب، وبحسَب طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ازدادت طهارته ازدادت قابليته للعلم.

فمن أراد حِيازة العلم فليُزيِّن باطنه، ويطهر قلبه من نجاسته، فالعلم جوهر لطيف لا يصلح إلا للقلب النظيف.

وطهارة القلب ترجع إلىٰ أصلين عظيمين:

أحدهما: طهارته من نجاسة الشبهات.

والآخر: طهارته من نجاسة الشهوات.

وإذا كنت تستحي من نظر مخلوق مثلك إلىٰ وسخ ثوبك، فاستح من نظر الله إلىٰ قلبك، وفيه إحن وبلايا، وذنوب وخطايا.

ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم».

ومن طهَّر قلبه فيه العلم حَلَّ، ومن لم يرفع منه نجاسته وَدَعَه العلم وارتحل.

قال سهل بن عبد الله رحمه الله: (حرام علىٰ قلب أن يدخله النور، وفيه شيء مما يكره الله عز وجل).

لمّا بيَّن المصنِّف وفّقه الله أن نيْل العلم وحِيازته متوقفة علىٰ تعظيمه وذكر قبل أن تعظيمه يُدرك بلزوم معاقد التعظيم وهي الأصول الجامعة لذلك المحققة لهٰذا المعنىٰ في القلب، شرع يُبيِّن جملة من هٰذه المعاقد واحدا واحدا.

وابتدأها الأول وهو (تطهير وعاء العلم)؛ لأن لكل مطلوب وعاءً ووعاء العلم القلب (وبحسَب طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ازدادت طهارته ازدادت قابليته للعلم.

فمن أراد حِيازة العلم فليُزيِّن باطنه، ويطهر قلبه من نجاسته، فالعلم جوهر لطيف لا يصلح إلا للقلب النظيف) فإنَّ العلم المُعظَّم شرعا له مقام كريم يُعدل بالجواهر الكريمة الثمينة عند الخلق، وهٰذه الجواهر المُعظَّمة من ذهب وفضّة وعقيق وغيرها لا يجعلها الخلق في المزابل، وإنما يجعلونها في الخزائن القوية العتيدة التي إذا حُفظت فيها لم تُسلب فهي صالحة لحفظها، وكذلك العلم لجلالته وشرفه هو جوهرٌ لطيف ولا يجعله الله عز وجل في المزبلة من القلوب كما أنَّ جواهر الدنيا وما عظُم عند

أهلها لا يُجعل في المزابل فالعلم المُعظَّم شرعًا لا يُجعل في القلوب التي هي كهيئة المزابل، ويكون القلب مزبلةً إذا كان مُتَّسِخًا بأمراض الشهوة والشّبهة،

لأنَّ الأمراض التي تعتري القلب نوعان:

أحدهما: مرض شبهة

والآخر: مرض شهوة

فالطهارة التي تتعلق بالقلب ترجع إلىٰ ما يتصل بهذين المرضين، فتكون (طهارة القلب) موقوفة (علىٰ أصلين عظيمين:

أحدهما: طهارته من نجاسة الشبهات

والآخر: طهارته من نجاسة الشهوات.)

وإذا كان أحدنا يستحي من نظر مخلوق مثله إلىٰ وسخ وقذر يكون في ثوبه، فإنه مأمورٌ أن يكون حياؤه من الله أعظم إذا اتسخ قلبه أن ينظر الله إلىٰ قلبه وفيه إحَنٌ وبلايا وذنوب وخطايا.

ثم ذكر المصنِّف من مشكاة النبوة في حديث أبي هريرة ﵁ عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم».

فبيَّن أنَّ محلَّ نظر الله من العبد موقعان:

أحدهما: قلبه.

والآخر: عمله.

فالمنظور إليه من أحدنا عند ربنا ﷻ يرجع إلىٰ قلبه وعمله فيحتاج العبد إلىٰ قلب نقي طاهر وعمل صالح ظاهر، فمتىٰ كانت هٰذه حال العبد كان نظر الله ﷻ إليه نظر إنعام وإفضال وحفظ ورعاية وصَوْن ووقاية، وإذا كان بضدّ ذلك كانت المعاملة بضدّ ذلك.

قال ابو الفَرَج ابن الجوزي: (تصفية الأحوال علىٰ قدْر تصفية الأعمال)، وقال مُطَرِّف بن العلاء بن الشِخيِّر: (من صفَّىٰ صُفِّيَ له، ومن كَدَّرَ كُدِّرَ عليه)، فإذا صفَّ الإنسان حاله مع ربه في عمله صفَّ الله ﷻ له أحواله في نفسه وبلَّغه مُنَاه فيما يطلبه.

ثم قال: (ومن طهَّر قلبه فيه العلم حَلَّ) أي وُجد ووقع (ومن لم يرفع منه نجاسته وَدَعَه العلم) أي تركه (وارتحل.)

(قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حرام علىٰ قلب) أي يمتنع قدرًا (أن يدخله النور) أي يكون فيه شيء من النور (وفيه شيء مما يكره الله عَزَّ وَجَلَّ)) وشاهده في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦]، قال سفيان بن عيينة: (أحرمهم فهم القرآن)، وقال محمد بن يوسف الفِريابي: (أمنعهم من تدبُّر أمري) أي القرآن.

فإذا كان أصل العلم وهو القرآن الكريم يُحجب إذا وُجد في القلب شيء من هٰذه النجاسات، فإنَّ ما دونه يكون أولىٰ بالحَجْب، فيتَحَرَّز الإنسانُ من أن يُخالط قلبَه شيء من نجاسة الشهوة أو الشبهة، وليس أحد منَّا إلاَّ وهو مصيب حظَّه من الذنب، فقد كتب الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك علىٰ كل ابن آدم، ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: «إنكم تذنبون بالليل والنهار» فأخبر أنَّ الذنب وصف ملازم للآدمية، لكن العبد إذا وقع منه ذنب فإنه مأمور بالمبادرة إلىٰ الاستغفار والتوبة، قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد في «العقيدة التدمرية»: (من أذنب فنِدم فتاب فقد أشبه أباه، ومن أشبه أباه فما ظلم) انتهىٰ كلامه. أي وقعت مشابهة أبيه آدم.

فإنَّ الإنسان يقع في الذنب، طبيعة آدمية وجِبِلَّةً إنسانية لكنه مأمور بأن يُعاجِل إلىٰ التوبة والاستغفار من الله تَعَالَىٰ، فإذا تلطخ أحدنا بشيء من ذلك وجب عليه أن يُبادر إلىٰ التوبة منه لئلا يُحرم العلم، فإنَّ المعصية من أسباب رفع العلم، واستنبط أبو الفَرَج ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ذلك من وجه يدلُّ علىٰ شُفوف نظره وكمال فقهه وصلاح حاله، فاستنبطه مما في «الصحيح» من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أُريتُ ليلة القدر، فتلاحىٰ رجلان فرُفعت» أي أن النبي ﷺ كان أوتي علمها برؤيا منامية فأراد بأن يخبر بذلك فاختصم رجلان علىٰ وجه المجادلة والفجور بينهما فرُفع العلم بها، فإذا كان هٰذا أثرها في علم عند رجل لم يُواقع ذنبا فكيف يكون حالها عند رجل واقع ذنبا، فإذا تعاهد الإنسان نفسه بإصلاح قلبه وطرد نجاسته التي تعتريه، أعانه الله علىٰ العلم ووفَّقه إلىٰ أسبابه وهَيَّأ له نيْله بما لا يكون في خَلَدِهِ ولا يجول في باله، لأنَّ العلم كما سلف مِنَّة محضة من الله تَعَالَىٰ، فتعاهدُوا قلوبكم تفلحوا وتَغنموا.

المعقِد الثاني

إخلاص النية فيه

إنَّ إخلاص الأعمال أساس قبولها، وسُلَّم وصولها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥]

وفي «الصحيحين» عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوىٰ».

وما سبق من سبق، ولا وصل من وصل من السَّلف الصالحين، إلا بالإخلاص لله ربِّ العالمين.

قال أبو بكر المرُّوذيُّ رَحِمَهُ اللهُ: سمعت رجلا يقول لأبي عبد الله - يعني أحمد ابن حنبل - وذكر له الصدق والإخلاص، فقال أبو عبد الله: (بهٰذا ارتفع القوم).

وإنما ينال المرء العلم علىٰ قدر إخلاصه.

والإخلاص في العلم يقوم علىٰ أربعة أصول، بها تتحقق نية العلم للمتعلم إذا قصدها:

الأول: رفع الجهل عن نفسه، بتعريفها ما عليها من العبوديات، وإيقافها علىٰ مقاصد الأمر والنهي.

الثاني: رفع الجهل عن الخلق، بتعليمهم وإرشادهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم.

الثالث: إحياء العلم، وحفظه من الضياع.

الرابع: العمل بالعلم.

ولقد كان السلف - رحمهم الله - يخافون فوات الإخلاص في طلبهم العلم، فيتورعون عن ادِّعائه لا أنهم لم يحقِّقوه في قلوبهم.

سُئل الإمام أحمد: هل طلبت العلم لله؟ فقال: (لله عزيز، ولكنه شيء حُبِّب إليَّ فطلبته).

ومن ضيَّع الإخلاص فاته علم كثير، وخير وفير.

وينبغي لقاصد السلامة أن يتفقَّد هٰذا الأصل - وهو الإخلاص - في أموره كلها، دقيقها وجليلها، سرِّها وعلنها.

ويَحمِل علىٰ هٰذا التَّفقُّد شدَّة معالجة النية.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: (ما عالجتُ شيئا أشدَّ عليَّ من نيتي، لأنها تتقلَّب عليَّ).

بل قال سليمان الهاشمي رَحِمَهُ اللهُ: (ربَّما أُحدِّث بحديث واحد ولي نية، فإذا أتيت علىٰ بعضه تغيَّرت نيتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلىٰ نيات).

ذكر المصنِّف وفقه الله معقِدا آخر من معاقد تعظيم العلم وهو (إخلاص النية فيه) لأنَّ (إخلاص الأعمال أساس قبولها، وسُلَّم وصولها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]) أي حال كونهم مخلصين له الدين.

(وفي «الصحيحين» عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الأعمال بالنية») أي متعلقة بنية عاملها «ولكل امرئ ما نوى» أي حظّ العامل من عمله بقدر نيته، والمأمور في النيات أن يكون العبد مخلصا فيها لله.

والإخلاص شرعا: هو تصفية القلب من إرادة غير الله، وإلىٰ هٰذا المعنىٰ أشرتُ بقولي:

إخلاصنا لله صفٌّ القلب من ... إرادة سواه فاحذر يا فَطِن

فمُريد الإخلاص عليه أن يتلمّس تصفية قلبه من وجود إرادةٍ سوىٰ إرادة الله ﷻ.

ثم ذكر المصنف أنه (ما سبق من سبق، ولا وصل من وصل من السلف الصالحين) إلىٰ الدرجات الرفيعة والمقامات المُنيفة (إلا بالإخلاص لله رب العالمين) فالخَلاص في الإخلاص والرِّفعة بقدره.

(قال أبو بكر المرُّوذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت رجلا يقول لأبي عبد الله ـ يعني أحمد ابن حنبل ـ وذكر له الصدق والإخلاص، فقال أبو عبد الله: (بهٰذا ارتفع القوم)) أي ارتفعوا بصدقهم وإخلاصهم، فبقدر صدق الإنسان وإخلاصه يكون ارتفاعه.

والفرق بين الصدق والإخلاص: أنَّ الصدق هو توحيد المراد، والإخلاص هو توحيد الإرادة، ذكره أبو عبد الله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

ثم بيَّن المصنِّف أنَّ المرء إنما ينال العلم علىٰ قدر إخلاصه، فلا يناله بحَسَبه ولا بنسبه ولا بماله وإنما بقدر إخلاصه، روىٰ الخطيب في «الجامع» وابن عساكر في «أماليه» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (إنما يحفظ الرجل علىٰ قدر نيَّته). انتهىٰ

فالقوىٰ التي يُمَدُّ بها الإنسان من الإعانة علىٰ الحفظ والفهم مَوْكولة إلىٰ ماله من نيَّة، فإذا كَمُلت هٰذه النية وصلُحت فتح الله ﷻ له من أبواب الحفظ والفهم ما لم يكن يحتسبه، ويُعلم منه أنه لا ينبغي أن ينقطع العبد عن العلم؛ لأنه يرىٰ من نفسه تأخُّرا في حفظه أو تخلُّفا في فهمه، لأنَّ هٰذه القوىٰ الظاهرة ليست هي مَرَدُّ حَوْزِ العلم، وإنَّما المردُّ الأعظم هوإخلاصك لله ﷻ، فمن أخلص فتح الله ﷻ له من مَعِين العلم ومَنْهَلِه ما لم يظنه العبد في نفسه، وإذا زاد الإخلاص وكمُلت الحال زادت فتوحات الله ﷻ لعبده حفظا وفهمًا وإدراكًا.

ثم بيَّن كيفيَّة الإخلاص في العلم، لأنَّ الإخلاص بابٌ من الدين يتعلَّق بجميع الأحوال، ومِن فِقْهِ العبادة أن يتعلم المرء كيفيات الإخلاص في أبواب الدين، فينبغي أن تتعلَّم كيفية الإخلاص في الطَّهارة للصلاة، وأن تتعلم كيفية الإخلاص في الصلاة لربِّك، وأن تتعلم كيفية الإخلاص في برِّ الوالدين، وأن تتعلم كيفية الإخلاص في تجارتك، وتأسَّف ابن الحاج في كتاب «المدخل» علىٰ تفريط الفقهاء في تعليم الناس نِيَّاتهم في أعمالهم، وودَّ لو انتصب جملة منهم ليعلموا الناس النية في أعمالهم، فكم من امرئٍ يعمل عملا لا يُحقِّق نيته، ومن جملة ذلك طلب العلم فإننا نسمع كثيرًا الأمر بالإخلاص في طلب العلم؛

لكنَّك إذا التمست الحقيقة المُبَيِّنَة للإخلاص المأمور به في العلم افتقدتها بيانا وعِيانا، فتفتقدها في البيان المُعرِب عنها، وتفتقدها في العِيان المُشاهَد في أحوال المنتسبين إلىٰ العلم.

وقد بيَّن المصنِّف في الجملة المذكورة المستفتحة بقوله: (والإخلاص في العلم يقوم علىٰ أربعة أصول) إلىٰ آخره، كيفية الإخلاص، فبيَّن أنها ترجع إلىٰ أربعة أصول:

فالأول: (رفع الجهل عن نفسه) أي أن ينوي رفع الجهل عن نفسه (بتعريفها) أي تعريف نفسه (ما عليها من العبوديات، وإيقافها علىٰ مقاصد الأمر والنهي) فهو يريد أن يتعرف طريق العبودية لله بطلبه العلم.

والثاني: (رفع الجهل عن الخلق) أي أن ينوي بِالتماس العلم رفع الجهل عن الخلق (بتعليمهم وإرشادهم لما فيه مصالح دنياهم وآخرتهم) فهو لا يريد أن يترفَّع عليهم، وإنما يريد أن يرفع عنهم، فهو لا يترفَّع عليهم بالجلوس علىٰ الكرسي وهم جلوس علىٰ الأرض، ولا يترفَّع عليهم بأن يتأثَّل في منصب تعليمي أو عملي وهم في غيره، وإنَّما يريد أن يرفع عنهم الجهل بتعليمهم وإرشادهم إلىٰ مصالح الدُّنيا والدين.

ثم ذكر الأصل الثالث وهو (إحياء العلم) والمراد به (حفظه من الضياع) فينوي بطلبه العلم أن يُحيي العلم وأن يُنعِشه لئلاّ يضيع؛ لأنَّ العلم في هٰذه الأمة الذي هو أصل دينها، فإذا حُفظ فيها حُفظ دينها وإذا ضاع منها ضاع دينها، وما ضاع من الدِّين أشدُّ مما ضاع من الطِّين، فكم نسمع تأسُّفًا وتَحسُّرًا علىٰ فردوس الأندلس وغيره من المقامات العظيمة التي كانت من بلاد المسلمين، وقلَّ أن نسمع ولا سِيَّما بأخرَة عن فواتِ أبواب من الدِّين ضَعُف العلم والعمل بها، فإنَّك لم تعُد تسمع من يتكلم عن الجهاد مُحَقِّقًا إياه وَفق الأحكام الشرعية، ولا من يُنَبِّه إلىٰ مقاصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل انقلب الناس من الانطَاح إلىٰ الانبطاح واستبدلوا هوًىٰ بهوىٰ، لأنَّ مقصود كثيرمن الخلق ليس نصرة الشرع وإنما نصرة أهوائهم وأنفسهم.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في باب الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله في مسائله قال: (وفيه التنبيه علىٰ الإخلاص) لأنَّ كثيرا من الناس لو دعا إلىٰ الله فإنما يدعو إلىٰ نفسه. ومن آثار ذلك غياب المعالم الشرعية، ومن صورها أن تسمع تأسُّفا وتحسراً علىٰ ذهاب بعض بلاد المسلمين لكنك لا تسمع تحسراً وتأسُّفا علىٰ ذهاب دين المسلمين، بل صار من المنتسبين إلىٰ الشرع يؤطرُ تأصيلا لتغيير بعض المقامات الشرعية وإظهار بدائِلَ ينسبها إلىٰ الشرع.

فمثلا الولاء والبراء لم يَعُدْ مطلوبا كما كان مُقَيَّدًا في دواوين أهل العلم من أهل السنة، وإنما الولاء والبراء متعلقه الكافر المُعادي المقاتل للمسلمين وأما الكافر غير المعادي فإننا لا نُؤمر ببغضه عند

هؤلاء القوم الذين قلبوا المِجن، فجُعل دين اليوم غير دين الأمس، فالإسلام لا تغيِّره الأيام، فالدين الذي مات عليه أبو القاسم ﷺ هو الدين المطلوب المراد مِنا

فينبغي أن يكون من نية طالب العلم في طلب العلم أن يحفظ الدين من الضياع.

ثم ذكر الأصل الرابع في نية العلم العمل به بأن ينوي العمل به.

وأشرْتُ إلىٰ هٰذه الأصول الأربعة بقولي:

وِنيَّـةٌ للعلـم رَفْـعُ الجهـل عَـمْ ... عـن نفسِـهِ فَغيـرِهِ مـن النَّسَـمْ
وبعـدَهُ التَّحْصـينُ للعلـوم مـن ... ضَـياعِها وعمـلٌ بـهِ زُكِـن

و(النَّسم) جمع نَسَمَة والمراد بها الخلق

و(زُكِنْ) بمعنىٰ ثَبَت.

ثم ذكر (السلف ـ رحمهم الله ـ يخافون فوات الإخلاص في طلبهم العلم، فيتورعون عن ادِّعائه) أي يلزمون الورع فيه فلا يدَّعون أنهم حقَّقوه، وليس المراد أنهم (لم يُحَقِّقوه في قلوبهم)؛ ولكنهم تبرؤوا ورعا من تلك الدعوة، لأنَّ الصادق مُباعِد للدعاوي، والكاذب مُغرَم بها، ولا يصدُق الإنسان في دعواه إلا إذا أقام شاهدها وبيِّنتها.

ثم ذكر من كلامهم ما يُصدِّق ذلك فقال: (سُئِل الإمام أحمد: هل طلبت العلم لله؟ فقال: لله عزيز) أي يشُقُّ علي أن أقول أني طلبت العلم لله (ولكنه شيء حُبِّب إليَّ فطلبته).

ثم قال: (ومن ضيَّع الإخلاص فاته علم كثير، وخير وفير) قال عبد الله بن مبارك: (كم من عمل صغير عظَّمته النية، وكم من عمل كبير حقَّرته النية) فإذا ضيَّع العبد الإخلاص فاته علم كثير وخير وفير.

ثم ذكر أنه: (ينبغي لقاصد السلامة أن يتفقد هٰذا الأصل) لئلا يغفل عن تطلبه في نفسه (في أموره كلها، دقيقها وجليلها، سرِّها وعلنها).

ثم بيَّن موجب التفقد بقوله: (وَيحمِل علىٰ هٰذا التفقد شدَّة معالجة النية) أي أنَّ معاناة النية تصحيحا وإصلاحا وحفظا شديدة، (قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما عالجت شيئا) أي ما كابدت معالجة شيء (أشدَّ عليَّ من نيتي، لأنها تتقلب عليَّ) أي: لأنَّ النية تتغيَّر وتتحوَّل، وإنما كانت مُتَّصِفةً بهٰذه الحال لأنَّ محلها القلب، والقلب إنما سُمِّي قلبا لتقلُّبه، قال الشاعر:

قـد سُـمِّيَ القلـبُ قلبًا مـن تَحَوُّلِـهِ ... فاحذر علىٰ القلب من قَلْبٍ وتحويل

فإذا كان القلب وهو آنية النية مُتقلِّبا صارت النية تابعةً له.

ثم أورد قول سليمان الهاشمي أنه قال: (ربما أُحدِّثُ بحديثٍ واحد ولي فيه نية) أي نية صالحة فيه (فإذا أتيت علىٰ بعضه) أي إذا حدَّثتُ ببعضه (تغيَّرت نيتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلىٰ نيات)، والنيات التي يحتاج إليها المراد بها تصحيح النية.

والمراد بـ**تصحيح النية شرعا**: **ردُّ النية إلىٰ المأمور به إذا عرض لها ما يُغيِّرها أو يُفسِدها**، فالعوارض التي تهجُم علىٰ النية نوعان:

أحدهما: عارِضٌ يُغيِّرها، بإخراجها من قصد القربة إلىٰ الإباحة المُجرَّدة.

والآخر: عارِضٌ يُفسِدها، وذلك بإخراجها من القربة المأمور بها شرعا إلىٰ ما يُخالف ذلك من المحرّمات.

مثال الأول: أن ينوي الإنسان في قراءة كتابٍ الاِطلاعَ علىٰ الأحكام الشرعية فيه، فإذا غفل عن ذلك تغيّرت نيته إلىٰ التمتع بمفرداته بلاغةً وبيانا، فإنه قد يكون خرج من قصد القربة إلىٰ قصد الإباحة المجردة.

ومثال الثاني: من قرأ كتابا ليستفيد عِلمَه، ثم تحوّلت نيته إلىٰ أن يَظهَر به علىٰ أقرانه وأن يَبُزَّ به الخلق معرفة وإحاطة، فخرج من المأمور به شرعا إلىٰ شيء فاسد منهي عنه.

وهٰذا المقام وهو مقام تصحيح النية أحدُ المقامات التي تَعرِض للنية وتطلب فيها، لأنَّ مقامات النية متعدِّدة، ومن أفرادها مقام تصحيح النية، ومن مقاماتها: مقام إيجاد النية، ومنها: مقام تجديد النية، هٰذه ثلاث مقامات شهيرة تتعلق بالنية، ومُتعلَّقُ قوله هنا هو تصحيح النية وفق ما بَيَّنا معناه.

المعقِد الثالث

جمع هِمّة النفس عليه

تجمع الهمة علىٰ المطلوب بتفقُّد ثلاثة أمور:

أولها: الحرص علىٰ ما ينفع، فمتىٰ وُفق العبد إلىٰ ما ينفعه حرص عليه.

ثانيها: الاستعانة بالله ﷻ في تحصيله.

ثالثها: عدم العجز عن بلوغ البُغية منه.

وقد جُمعت هٰذه الأمور الثلاثة في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز».

قال الجُنيد رحمه الله: (ما طلب أحد شيئا بجدٍّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كله نال بعضه).

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد»:

(إذا طلع نجم الهمَّة في ظلام ليل البطالة، وردِفه قمر العزيمة، أشرقت الأرض بنور ربها).

وإنَّ مما يُعلي الهمة ويسمو بالنفس: اعتبار حال من سبق، وتعرُّف هِمم القوم الماضين.

فأبوا عبد الله أحمد ابن حنبل كان ـ وهو في الصِبا ـ ربما أراد الخروج قبل الفجر إلىٰ حلق الشيوخ فتأخذ أمه بثيابه وتقول ـ رحمة به ـ (حتىٰ يُؤذِّن الناس أو يُصبحوا).

وقرأ الخطيب البغدادي رحمه الله «صحيح البخاري» كلَّه علىٰ إسماعيل الحِيريِّ في ثلاثة مجالس، اثنان منها في ليلتين من وقت صلاة المغرب إلىٰ صلاة الفجر، واليوم الثالث من ضحوة النهار إلىٰ صلاة المغرب، ومن المغرب إلىٰ طلوع الفجر.

وكان أبو محمد ابن التَّبَّان أول ابتدائه يدرس الليل كله، فكانت أمه ترحمه وتنهاه عن القراءة بالليل، فكان يأخذ المصباح ويجعله تحت الجَفنة ـ شيء من الآنية العظيمة ـ ويتظاهر بالنوم، فإذا رقدت أخرج المصباح وأقبل علىٰ الدرس.

فكن رجلا رجلُه علىٰ الثرىٰ ثابتة، وهامة همَّته فوق الثريا سامقة، ولا تكن شابَّ البدن أشيب الهمَّة، فإن همَّة الصادق لا تشيب.

كان أبو الوفاء ابن عقيل ـ أحد أذكياء العالم من فقهاء الحنابلة ـ يُنشد وهو في الثمانين:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خُلُقي ... ولا ولائي ولادِيني ولا كرمي

وإنمــا اعتــاض شــعري غيــر صِــبغته والشـيب في الشـعر غيـر الشـيب في الهمـم

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقِدا ثالثا من معاقد تعظيم العلم وهو (جمع هِمّة النفس عليه) فإنَّ من دلائل تعظيمك العلم أن تجمع همتك عليه.

ثم بيَّن كيفية جمع الهمة وذلك (بتفقُّد ثلاثة أمور) ذكرها ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» وهي طيُّ الحديث النبوي المذكور بعد:

(**أولها**: الحرص علىٰ ما ينفع) بأن تُقبل عليه وتعتني به.

و(**ثانيها**: الاستعانة بالله ﷻ في تحصيله) أي طلب العون من الله ﷻ في تحصيله، لأنَّ قواك مهما بلغت إذا خُذلت لم تنفعك شيئا، قال الشاعر:

إذا لـم يكـن عـونٌ مـن الله للفتـىٰ فـأوّلُ مـا يَجْنـي عليـه اجتهـاده

و(**ثالثها**: عدم العجز عن بلوغ البُغية منه) فلا ينبغي للعبد أن يتقاعد عاجزا عن إدراك مطلوبه الذي يَرُومُه من أمر ما، وهؤلاء جُمعت في قوله ﷺ: «احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»

ثم ذكر من كلام من مضىٰ ما يُصَدِّق ذلك من كلام الجُنيد وأبي عبد الله ابن القيم.

ثم قال: (وإنَّ مما يُعلي الهمة ويسمو بالنفس) أي من الوسائل الموصلة إلىٰ علو الهمة وسُمُوّ النفس (اعتبار حال من سبق، وتعرُّف هِمم القوم الماضين) أي النظر في سير الماضين من الأنبياء والعلماء والشهداء والصالحين، قال أبو الفرَج ابن الجوزي: (لا أجد شيئا أنفع للطالب من إدمان النظر في سيَر السلف) ـ رحمهم الله تعالىٰ ـ فمن أعظم الأسباب التي تنتفع بها في علوِّ همتك وسُمُوِّ نفسك بأخذك العلم أن يكون لك حظّ من النظر في سير العلماء الماضين.

ثم ذكر من أحوالهم طَرَفًا، فمن ذلك الإمام أحمد (كان ـ وهو في الصِّبا ـ ربما أراد الخروج قبل الفجر إلىٰ حلق الشيوخ فتأخذ أمه بثيابه وتقول ـ رحمة به ـ حتىٰ يُؤذِّن الناس أو يُصبحوا) يعني انتظر حتىٰ يُؤذِّن الناس آذان الفجر (أو يُصبحوا) يظهر الصبح ويَبين.

ثم ذكر قراءة الخطيب البغدادي «صحيح البخاري» كلَّه علىٰ إسماعيل الحيريّ في ثلاثة مجالس، وهٰذا أمر عظيم، ذكر الذهبي ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ـ في «تاريخ الإسلام» أنه لا قدرة علىٰ ذلك في أهل زمانه فكيف بأهل زماننا، ولكنّ من جدَّ وجد ومن تشبَّه بالقوم وصل، وقد ذكر ابن طولُون في «الفِهْرِسْتِ الأوسط»

أنه قصد مُحاذاة الخطيب فيما فعل فقرأ «صحيح البخاري» في ثلاثة أيام كقراءة الخطيب ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ـ علىٰ شيخه إسماعيل الحيريّ.

ثم ذكر أنّ (أبا محمد ابن التَّبَّان أول ابتدائه يدرس الليل كله) أي يَعمُر وقته في الليل بالدرس وبارَعه في ذلك أبو زكريا النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه بقي خمس سنوات لا ينام إلا اِتِّكاءً والكتاب بين يديه، فكان إذا غلبه النوم اِتكأ في المكان الذي أعدَّه واتخذه لطلب العلم.

ثم ذكر من خبره أنَّ (أمه كانت ترحمه وتنهاه عن القراءة بالليل، فكان يأخذ المصباح ويجعله تحت الجَفنة ـ شيء من الآنية العظيمة ـ ويتظاهر بالنوم، فإذا رقدت أخرج المصباح وأقبل علىٰ الدرس) رَحِمَهُ اللَّهُ.

(فكن رجلا رجلُه علىٰ الثُّرىٰ) أي وجه الأرض (ثابتة وهامة همَّته فوق الثُّريا) النجم المعروف (سامقة) أي مرتفعة (ولا تكن شابَّ البدن أشيب الهمَّة) لا تكن شابًّا في بدنك وقواك وفي همته الباطن أشيب أي كبير السن، ويُقال لمن تقدّم في السن: أشيب ولا يقال: شايب في أصحّ قوليّ أهل اللغة.

ثم قال (فإن همَّة الصادق لا تشيب) أي المقبل علىٰ أمر يَرُومُهُ لا تشيب همته، فإنه ما حسُنت فيه الحياة حسُن به أن يشتغل بإدراك مرغوبه، قيل لعبد الله أحمد ابن حنبل: إلىٰ متىٰ يحسُن بالإنسان أن يطلب العلم فقال: (ما حسُنت به الحياة).

إذا كان الإنسان لا يزال راغبا في الحياة مُحِبًّا لها طامعا في البقاء فيها فإنه يحسُن به أن يصل ماضيه بيومه ويومه بغده بطلب العلم والتماسه.

ثم أورد إنشاد أبي الوفاء ابن عقيل أحد أذكياء العالم من الحنابلة إذ قال:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خُلُقي ... ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي

و إنّما اِعتاض شعري غيرَ صِبغته ... والشّيب في الرأس غيرُ الشّيب في الهِمم

وكم من إنسان لا ترىٰ في لحيته شيبةً بيضاء ويرىٰ البصير أن في قلبه كثيرا من الشيب في همّته فتجده عاجزا متخاذلا متضاعفا واهِنًا عن إدراك مطلوبه، والحرُّ لا يرضىٰ إلا بالتحليق في جوِّ السماء، والصادق إذا أقبل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ جعل له في قلبه من الأجنحة ما تعلو به همّته فوق نجم السماء، فإذا اجتهد الإنسان في تصحيح نيّته وإعلاء همّته أعانه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجعل له من القوىٰ ما يكون أبناء زمانه من أقرانه متقاعدين عنه وهو يُحلِّق فوقهم بجَنَاحَيِّ قلبه، والتحليق بالقلب أعظم من التحليق بالبدن، وكم من قلب حلق في جوف السماء قوة وهمّة وهيبة مع أنَّ بدنه لا يرتفع عن الأرض لعجزه ومرضه، فتجد من الناس من قد

هَرِمَ لِكِبَرِ سنه؛ لكن لم تَهْرَم همَّته، وقد رأيتُ الشيخ محمد رافع البوصيري -رَحِمَهُ اللَّهُ- محدِّث الحبشة وكان يُدرِّس كتب الحديث في المسجد الحرام فأشار عليه الشيخ ابن باز -رَحِمَهُ اللَّهُ- أن يذهب إلىٰ بلاده ليُعلم الناس، رأيته وقد جاوز المائة وهو يجلس من الساعة الثامنة صباحًا إلىٰ الساعة الثانية بعد الظهر يُعِلم الناس، ولم ينقطع عن التعليم إلا قبل موته بثلاثة أشهر ومات وهو ابن ثلاث سنوات بعد المائة، وقد بقي في تدريس الحديث أكثر من سبعين سنة، وقرأ عليه الكتب الستة رجال من أبناء الثمانين وشباب من أبناء السادسة عشر، لأنَّ همّة الصادق لا تشيب، فهو لا يزال مقبلا علىٰ مطلوبه مجتهدا علىٰ نفسه فمهما وَهَنَ بدنه لا تزال همّته في عافية.

المعقد الرابع

صرف الهمَّة فيه إلى علم القرآن والسنة

إنَّ كلَّ علم نافع مردُّه إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وباقي العلوم: إما خادم لهما، فيُؤخذ منه ما تتحقق به الخدمة، أو أجنبيٌّ عنهما، فلا يضر الجهل به.

وما أحسنَ قول عِياضٍ اليَحصُبي في كتابه «الإلماع»:

العلـــم في أصـــلين لا يعـــدوهما إلا المُضـلُّ عـن الطريـق اللاحِـب
علـمُ الكتـاب وعلـمُ الآثـار التـي قـد أسـنِدَتْ عـن تـابع عـن صـاحب

وقد كان هٰذا علم السلف ـ عليهم رحمة الله ـ ثم كثر الكلام بعدهم فيما لا ينفع، فالعلم في السلف أكثر، والكلام فيمن بعدهم أكثر.

قال حمَّاد بن زيد: قلت لأيوب السّختِياني: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال: (الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر).

ذكر المصنِّف وفّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (صرف الهمَّة فيه) أي توجيهها (إلىٰ علم القرآن والسنة) لأنَّ (كلَّ علم نافع مردُّه إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ) قال الله تعالىٰ: ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف] ومما يندرج في هٰذا الأمر اِستمساكك بطلب علم الكتاب والسنة؛ لأنه العلم الصحيح النافع (وباقي العلوم: إما خادم لهما) أي للكتاب والسنة (فيُؤخذ منه ما تتحقق به الخدمة) أي ما تحصل به الخدمة، (أو أجنبيٌّ عنهما) أي بعيد مفارق لهما (فلا يضر الجهل به) قال أبو الفضْل ابن حجر في «فتح الباري»: (وباقي العلوم آلات لفهمهما وهي الضالة المطلوبة وإمّا أجنبية عنهما وهي الضارّة المغلوبة) انتهىٰ كلامه.

ثم استحسن قول القاضي عِياضٍ اليَحصُبيِّ في كتاب «الإلماع»:

العلـــم في أصـــلين لا يعـــدوهما إلا المُضـلُّ عـن الطريـق اللاحِـب
علـمُ الكتـاب وعلـمُ الآثـار التـي قـد أسـنِدَتْ عـن تـابع عـن صـاحب

اللاحِب يعني الواضح.

ثم بيَّن أنَّ هٰذا كان علم السلف (ثم كثر الكلام بعدهم فيما لا ينفع) وبيّن هٰذه الجملة بيانـًا تامًّا أبو الفرَج ابن رجب في كتابه النَّفَّاع «فضل علم السلف علىٰ الخلف» (في السلف أكثر والكلام فيمن

بعدهم أكثر، قال حمَّاد بن زيد: قلت لأيوب السِّختِياني: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال: (الكلام اليوم أكثر والعلم فيما تقدم أكثر)) لأنَّ الحقيقة العلم وُجود البركة والنفع، فرُبَّ كلام كثير نفعه قليل ورُبَّ كلام قليل نفعه كثير، قال ابن أبي العزّ في «شرح الطحاوية»: (فلذلك صار كلام المتأخرين كثيراً قليل البركة بخلاف كلام المتقدمين فإنه قليل كثير البركة) انتهىٰ كلامه، ومعناه في كلام أبي عبد الله ابن القيم أيضا، فكلام الأوائل قليل وكلام المتأخرين كلامٌ كثير؛ لكنّ النّفع في الأوّلين أَحْرىٰ لصدقهم، قيل لحَمْدونَ القَصَّار: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: (لأنهم تكلّموا بعزِّ الإسلام ونجاة النفوس ورِضا الرَّحمٰن، ونحن تكلّمنا بعزّة النفس وطلب الدنيا ورِضا الخلق) أخرجه البيهقي في «شُعب الإيمان» وأبو نُعيم الأصبهاني في كتاب «حلية الأولياء».

فهٰذا هو الفرق بين كلام الأول وكلام المتأخر، فإنّ كلا يُعرِبُ بكلام فصيح يُجري فيه ما تعرفه العرب في لحْنِها من أحرف وسند، ولكنهم يتفاضلون بالمقاصد، فالأوائل يتكلمون بعزِّ الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرَّحمٰن والمتأخرون بضد ذلك، فيتكلم أحدهم بعزَّة نفسه أي إظهارها وبيان محلّها ولطلب الدنيا ولإرضاء الخلق، فيكون كلام الأول أنفع لصحة النية وكلام المتأخر أقلُّ بركة لذهاب النية الصالحة منه أو قلّتها.

فمن شابه الأولين في مقاصدهم في الكلام وافقهم في البركة، ومن كان بضدّ ذلك صار حاله حال المتأخرين من الخلق.

وهٰذا يُبيِّنُ لك أن حقيقة العلم ليست قوىٰ ولا شهادات ولا رئاسات، حقيقة العلم عبودية لله ﷻ، فمن عبد الله علىٰ كمال كان علمه علىٰ الكمال، ومن خَلَّط في هٰذه العبودية وقع النقص في كلامه وعلمه.

المعقِد الخامس

سلوك الجادَّة الموصِلة إليه

لكلِّ مطلوب طريق يوصِل إليه، فمن سلك جادَّة مطلوبه أوقفته عليه، ومن عدَلَ عنها لم يظفر بمطلوبه، وإنَّ للعلم طريقا من أخطأها ضلَّ ولم ينل المقصود، وربما أصاب فائدة قليلة مع تعب كثير.

وقد ذكر هٰذا الطريق بلفظ جامع مانع محمد مُرتضىٰ بن محمد الزَّبِيدي - صاحب «تاج العروس» - في منظومة له تسمىٰ «ألفية السند»، يقول فيها:

فما حوىٰ الغايةَ في ألف سنهْ ... شخصٌ فخُذ من كلِّ فنٍّ أحسنهْ
بحفظ متن جامع للراجح ... تأخذه علىٰ مُفيدٍ ناصح

فطريق العلم وجادَّته مبنيَّة علىٰ أمرين، من أخذ بهما كان مُعظِّما للعلم، لأنه يطلبه من حيث يمكن الوصول إليه:

فأما الأمر الأول: فحفظ متن جامع للراجح، فلابد من حفظ، ومن ظنَّ أنه ينال العلم بلا حفظ فإنه يطلب محالا.

والمحفوظ المُعوَّل عليه هو المتن الجامع للراجح، أي المعتمد عند أهل الفن.

وأما الأمر الثاني: فأخذه علىٰ مفيد ناصح، فتفزع إلىٰ شيخ تتفهَّم عنه معانيَه، يتَّصف بهذين الوصفين:

وأولهما: الإفادة، وهي الأهلية في العلم، فيكون ممن عُرف بطلب العلم وتلقِيه حتىٰ أدرك، فصارت له مَلَكة قوية فيه.

والأصل في هٰذا ما أخرجه ابو داود في سننه بإسناد قوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: (تسمعون، ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يَسمع منكم).

والعبرة بعموم الخطاب، لا بخصوص المخاطَب، فلا يزال من معالم العلم في هٰذه الأمة أن يأخذه الخَالِف عن السَّالف.

أما الوصف الثاني: فهو النصيحة، وتجمع معنيين اثنين:

أحدهما: صلاحية الشيخ للاقتداء به، والاهتداء بهَدْيه ودَلِّه وسَمتِه.

والآخر: معرفته بطرائق التعليم، بحيث يُحسِن تعليم المتعلِّم، ويعرف ما يَصلُح له وما يضرُّه، وَفْقَ التّربية العلمية التي ذكرها الشاطبي في «الموافقات».

ذكر المصنِّف وفّقه الله معقِدا آخر من معاقد تعظيم العلم وهو (سلوك الجادَّة الموصِلة إليه) أي لزوم الطريق التي تبلغك العلم؛ لأنَّ (لكلِّ مطلوب طريق يوصِل إليه، فمن سلك جادَّة مطلوبه أوقفته عليه، ومن عدَلَ عنها لم يظفر بمطلوبه) فمن أخذ أخذًا حسنا في طريق العلم وصل إليه ومن عدَلَ عنها ضلّ ولم ينل مقصوده (وربما أصاب فائدة قليلة مع تعب كثير).

وهٰذا الطريق المنعوت في أخْذ العلم بيَّنه جماعة من المتكلّمين في هٰذه الحقيقة، منهم الزبيدي في «(ألفية السّند» إذ قال:

فما حوىٰ الغايةَ في ألف سنهْ ... شخصٌ فخُذ من كلِّ فنٍّ أحسنهْ

بحفظ متن جامع للراجح ... تأخذه علىٰ مُفيدٍ ناصح

فطريق العلم وجادته مبنيّة علىٰ أصلين:

أحدهما: حفظ متن جامع للراجح فلابد من حفظ، قال شيخ شيوخنا محمد بن مانع ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في «إرشاد الطلاب»: (أجمع العقلاء أن العلم لا يُنال إلا بحفظ) انتهىٰ كلامه بلفظه أو قريبا منه.

ثم ذكر المصنِّف أنَّ (المحفوظ المُعوَّل عليه هو المتن الجامع للراجح، أي المعتمد عند أهل الفن) فالمحفوظ المبتغىٰ هو متن تلقّاه أهل العلم بالقبول، فإيَّاك وحفظ متن لم يتلقاه أهل العلم القبول، فمِن الغبن المُستبين أن يترك أحدنا حفظ الألفية لابن مالك إلىٰ حفظ ألفية السيوطي أو ألفية الأُجهُوري أو غيرهما من الألفيات في علم العربية، لأنَّ ألفية ابن مالك هي التي تلقّاها أهل العلم بالقبول، وإيّاك وسلوك جادّة مُحدَثة في حفظ العلم فإن مفترعات الأذهان ومُبتكرات العقول لا تتناهىٰ، لكنَّ العُمْر أضيق والنفس أغلىٰ من أن تُجعل مرتعا خصبا لكلّ متكلّم، فإذا عُرِضَتْ عليك جادة مَّا ممَّا يُحفظ فأَعرِضها علىٰ طريق من سبق، فإن كانت هي هي فخذ بها وإن كانت هي هي وزيادة فخذ بها، وإن وجدتها علىٰ خلاف ذلك فإيَّاك وإيَّاها.

وأضرِبُ لك مثلا بيِّنًا من الشَّطط وهو فزَعُ الناس إلىٰ حفظ «الصحيحين» فيما يُسمَّىٰ وحقيقته مختصر الصحيحين علىٰ نهج ليس معتمداً عند المحدِّثين، فإنَّ هٰذه جادّة إنما حدثت في القرن الخامس عشر، ولم تكن من قبل أبدا، ولم تزل وصية أهل العلم أن يحفظ المبتدئ في الحديث «الأربعين» ثم «العمدة» ثم «بلوغ المرام» ثم «رياض الصالحين» لأنَّ هٰذه الكتب جمعت أصول الحديث النبوي، وكم من باب من أبواب الدين يَفزُعُ المرء من حفظ «الصحيحين» بألفاظهما تامّة فلا يعرف في شيئا، وإذا

أردت صِدقَ ذلك فخُذ كتاب «بلوغ المرام» وانظر أبوابا فيها أحاديث ليس فيها شيء من الصحيحين فمن حفظ الصحيحين لم يحفظ كثيرا من أصول السنة في هٰذه الأبواب، ولو استمعت إلىٰ كلام من سبق من المُستَنْصَحِينَ في حفظ الحديث النبوي لم تجد أحدا منهم إلا ويُرشدك إلىٰ حفظ «الأربعين النووية» فـ«عمدة الأحكام»، فـ«بلوغ المرام»، فـ«رياض الصالحين»، فإذا التبس عليك شيء ممَّا يُنعتْ فعليك بكلام السابقين فإنه جادَّة النّجاة لك.

ثم ذكرالأمر الثاني وهو (أخذه علىٰ مفيد ناصح، فتفزع إلىٰ شيخ تتفهَّم عنه معانيَه، يتَّصف بهذين الوصفين:

وأولهما: الإفادة، وهي الأهلية في العلم) أي أن يكون عارفا بالعلم محيطا بمسائله إما بالقوة وإما بالفعل.

وذكر الأصل في ذلك وهو حديث (ابن عباس رَضَِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: (تسمعون، ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يَسمع منكم) فلابد من أخذه علىٰ شيخ يُلَقِنكَ العلم يتصف بالإفادة وهي الأهلية.

و(أما الوصف الثاني: فهو النصيحة، وتجمع معنيين اثنين:

أحدهما: صلاحية الشيخ للاقتداء به) أي أن يكون صالحا للاقتداء به، وليس المراد الكمال التامّ لأنَّ الإنسان لا يخلو من وجوه النقص فهو مطبوع عليه، لكن من كثرت حسناته علىٰ سيئاته فقد ترشَّح لحُسن الحال، وهو العدل عند اهل العلم، فإنَّ العدل عند أهل العلم هو من غلبت حسناته علىٰ سيئاته فكانت أكثر، ذكره أبو عبد الله الشافعي وأبو حاتم ابن حِبَّان في «صحيحه».

ثم قال: (والِاهتداء بهديه ودَله وسَمته) والهَدْي: اسم للطريقة التي يكون عليها العبد، وهٰذه الطريقة المسمَّاة بالهدْي تشمل شيئين:

أحدهما: دُلهُ، والمراد به: الهدْي المتعلّق بصورته الظاهرة.

والثاني: سمْتُه، والمراد به: الهدْي المتعلّق بأفعاله.

فحينئذ يكون قوله: (بهَدْيِه ودَلِه وسَمته) من عطف الخاص علىٰ العام.

فالهدي هو العام وهٰذا العام يندرج فيه شيئين: أحدهما: الدَلُّ والسَّمْت.

(والآخر: معرفته بطرائق التعليم، بحيث يُحسِن تعليم المتعلم، ويعرف ما يَصلُح له وما يضرُّه، وَفقَ التّربية العلمية التي ذكرها الشاطبي في «الموافقات») وهٰذا المعنىٰ من آكَدِ المعاني التي ينبغي تطلبُها في

الأشياخ المعلِمين، فليس كلّ عالم تكون له القدرة علىٰ تبليغ العلم الذي بين جَنْبَيْه، ولذلك ربما كان تصنيفه أحسن من تعليمه، فينبغي أن يتلمَّس المتعلم فيمن يأخذ عنه العلم كونه ممَّن يعرف ما يصلح للطالب وما يصلح به الطالب ولا يُراعي في ذلك رغبته وهواه ومُنيَته وإنما يراعي ترقِيَته فهو يُرَقِيهِ في هٰذا العلم بما يبدو له من وجوه الإحسان.

فمثلًا لو سألتني الآن عن رجل تأخذ عنه علم الفرائض، لم أعْدِلْ لك أحدا في الرياض من الشيخ ناصر الطريري ـ مدَّ الله في عمره ـ لأنه لا يرضىٰ أن يشرح لك الفرائض دون أن يُعطيك مسائل تَحُلها في بيتك ثمّ تأتي من غدٍ فيُصَحِّحُها لك، فهٰذا يُحسن طريقة التعليم، فعلم الفرائض دون المسائل هو كحال من يخوض في بحر ولا يعرف السباحة، فإذا قيِّدتْ هٰذه القواعد بمسائل تُحَلُّ ويتدرَّب عليها الطالب عند ذلك انتفع بتعلُّم علم الفرائض.

مثال آخر: علم العربية، فإنَّ علم العربية وأعني به النحو إذا لم يُقرَن بالإعراب لم ينتفع الطالب من دراسته، وقد صار مَآلُ الناس دراسة علم النحو منفصلًا عن علم الإعراب فلا تجدهم يُعرِبون شيئا من الكلام، فربما أخذوا باب الفاعل ثم لم يتدرَّبوا علىٰ الإعراب فيه فلا يُحسِنون حينئذ علم النحو وربما صار شاقًّا عليهم.

فإذا وجدْتَ من المُعلمين لبيبا فطِنا يعلمُ ما يصلُح لك فانتفع به وأقبل عليه، وإياك وشيخا يُلَبِّي بُغيَتك دون رعاية ما يصلح لك.

وأذكرُ من مُثلِ ذلك أنَّ شابًّا يافِعا اِهتدىٰ فأحبَّ أن يطلب العلم فذهب إلىٰ أحد الأشياخ فقال: إني أُريد أن أقرأ عليك في الحديث، فقال له الشيخ: هاتِ مسند الإمام أحمد، لأنَّ طبعة الرسالة كانت حديثة الصدور، فمثل هٰذا المُتعلم إنما يُلقمُ شيئا يقتله، لأنه قد رُفِع إلىٰ ما لم يُحِط به علما فهو كمن رقىٰ السطح بلا سُلم لا يستطيع أن يرجع فلا ينتفع بذلك إلا بأن يسقط، وهٰذا من أسباب السقوط في العلم، فإنَّ أسباب اِنقطاع المُتعلمين عن العلم هو عدم ترقِيَتِه شيئا فشيئا فيهلك بسبب ذلك، وسيأتي جملة من القول تُبَيِّنُه.

المعقِد السادس

رعاية فنونه في الأخذ، وتقديم الأهمِّ فالمهمِّ

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في «صيد خاطره»: (جمع العلم ممدوح).

مـن كـل فـنٍّ خُـذ ولا تجهـل بـه ... فـالحُرُّ مُطلـع علـىٰ الأسـرار

ويقول شيخ شيوخنا محمدٌ بن مانع رَحِمَهُ اللهُ في «إرشاد الطلاب»:

ولا ينبغي للفاضل أن يترك علما من العلوم النافعة التي تعين علىٰ فهم الكتاب والسنة، إذا كان يعلم من نفسه قوة علىٰ تعلمه، ولا يسوغ له أن يَعيب العلم الذي يجهله ويُزرِيَ بعالمه، فإنَّ هٰذا نقص ورذيلة، فالعاقل ينبغي أن يتكلم بعلم أو يسكت بحِلم، وإلاَّ دخل تحت قول القائل:

أتـاني أنَّ سـهلا ذمَّ جهـلا ... علومـا لـيس يَعـرفهُنَّ سـهل

علومـا لـو قراهـا مـا قلاهـا ... ولكـنَّ الرِّضـا بالجهـل سـهل

انتهىٰ كلامه.

وإنما تنفع رعاية فنون العلم باعتماد أصلين:

أحدهما: تقديم الأهم فالمهم، مما يفتقر إليه المتعلم في القيام بوظائف العبودية لله.

والآخر: أن يكون قصده في أول طلبه تحصيل مختصر في كل فن، حتىٰ إذا استكمل أنواع العلوم النافعة، ينظر إلىٰ ما وافق طبعه منها، وآنس من نفسه قدرة عليه، فتبَحَّر فيه، سواءٌ كان فنا واحدا أو أكثر.

ومن طيَّار شعر الشناقطة قولُ أحدهم:

وإن تـرد تحصـيل فـنٍّ تمِّمَـه ... وعـن سـواه قبـل الانتهـاء مَـهْ

وفي تـرادف العلـوم المنـع جـا ... إن توأمـان اسـتبقا لـن يخرجـا

ومن عرف من نفسه قدرةً علىٰ الجمع جَمَعَ، وكانت حاله استثناءاً من العموم.

ذكر المصنِّف وفقه الله معقِدا آخر من معاقد تعظيم العلم وهو (رعاية فنونه في الأخذ) أي الاعتداد بها والإقبال عليها (وتقديم الأهمِّ فالمهمِّ) أي تقديم الأعلىٰ رتبة فيما يحتاجه الإنسان علىٰ ما دونه من العلم.

وأورد صدْر قوله كلام ابن الجوزي إذ قال: (جمع العلم ممدوح) أي ضَمُّ أطراف العلوم والتأليف بينها في النفس ممدوح.

ثم ذكر قول ابن الورديّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

مــن كــل فــنٍّ خُــذ ولا تجهــل بــه فـــالحُرُّ مُطلـــع علـــىٰ الأســـرار

ثم أورد كلام شيخ شيوخه محمد بن مانع في «إرشاد الطلاب» من أنه (لا ينبغي للفاضل أن يترك علما من العلوم النافعة التي تعين علىٰ فهم الكتاب والسنة، إذا كان يعلم من نفسه قوة علىٰ تعلمه، ولا يسوغ له أن يَعيب العلم الذي يجهله ويُزرِيَ بعالمه، فإنَّ هٰذا النقص رذيلة، فالعاقل ينبغي أن يتكلم بعلم أو يسكت بحِلم، وإلاَّ دخل تحت قول القائل:

أتـــاني أنَّ ســـهلا ذمَّ جهـــلا علومـــا لـــيس يَعـــرفهُنَّ ســـهل

علومـــا لـــو قراهـــا مـــا قلاهـــا ولكـــنَّ الرِّضـــا بالجهـــل ســـهل)

(أتاني) أي بلغني

(ذمّ جهلا) أي لجهله ذمّ علوما

(علوما لو قراها) أي تلقّاها بالقراءة

(ما قلاها) يعني ما أبغضها، والقِلىٰ البغض، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[القارعة].

قال خالد البَرمَكي:(من جهل شيئا أنكره وعاداه).

ثم ذكر أنَّ رعاية فنون العلم تنفع باعتماد أصلين:

(أحدهما: تقديم الأهم فالمهم) والمراد بالأهمية ما بيّنه بقوله: (مما يفتقر إليه المتعلم في القيام بوظائف العبودية لله) لأنك تطلب العلم لتعبد الله علىٰ بصيرة، فإنَّ أول أصول النية أن ينوي رفع الجهل عن نفسه في عبودية ربه.

فلو مُثل لكم رجل يريد أن يطلب العلم وبين ناظِريْه درسان أحدهما في شرح رسالة شروط الصلاة وأركانها وواجباتها لإمام الدعوة الإصلاحية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ والآخر درس في صحيح البخاري وتفسير ابن كثير فأيُّهما هو به أولىٰ الأول أم الثاني ما الجواب؟ الأول لاحتياجه إليه في عبادة الله ﷻ فيُقدِّم الأهم علىٰ غيره وينظر في تلك الأهمية ما يفتقر إليه في معرفة ربه ﷻ.

ولذلك فإنَّ العلم لا يُؤخذ قفزا وإنما يُؤخذ العلم بِحَسَبِ افتقار العبودية، وعلىٰ هٰذا دُرِّجَ هٰذا البرنامج «برنامج أصول العلم» وغيره من البرامج، فإنَّ وضع العلم لا ينبغي أن يكون ابتكارا ذهنيا وإنما يكون عبادة لله ﷻ، فتَعَلمُ الإنسان ما يلزمه في اعتقاده وفي طهارته وفي معاني كلام الله ﷻ وغير ذلك من المهمات مُقَدَّم علىٰ غيره، وانتفاع المُعَلم مهما بلغ ذكاؤه وفطنته بذلك أكثر من انتفاعه بتعليم غيره،

ومن المُعلمين من له وَلعٌ بتعليم الكتب الكبار والزهد في الصغار، مع أنَّ الذي يُعلم المختصرات يُقرِّب الخلق إلىٰ الله أكثر، لأنَّ هٰذا هو العلم الذي يلزمه، ولو مات الإنسان وما تعلم إلا الأصول المختصرة التي يعبد بها الله ﷻ لكان أنجىٰ له من أن يتعلم «صحيح البخاري»، فلو أنَّ إنسانا اهتدىٰ فلازم شيخا فقرأ عليه البخاري من أوله إلىٰ آخره في اِثني عشْرة سنة، فإنَّ تعلمه لِماَ يلزمه من اِعتقاده وطهارته وصلاته أولىٰ وأنجىٰ له من أن يتعلم كتابا بهٰذه المنزلة العظيمة في الإسلام، فإنَّ كتاب البخاري هو من أعظم الكتب في الإسلام بل ليس بعد القرآن الكريم كتاب أعظم منه كما ذكره أبو العباس ابن تيمية في «الوصية الصغرىٰ»، ولكنك أحوج إلىٰ ما تعبد به الله ﷻ مما يلزمك من الدين.

ثم ذكر الأصل الآخر وهو (أن يكون قصده في أول طلبه تحصيل مختصر في كل فن) فتقصِد إلىٰ المختصرات في كلّ فنّ من الفنون الإسلامية، حتىٰ إذا استكمل أنواع العلوم النافعة (نظر إلىٰ ما وافق طبعه منها، وآنس من نفسه قدرة عليه فتبَحَّر فيه سواءٌ كان فنا واحدا أو أكثر) فإذا حصّلت متنا وثيقا في الاعتقاد وآخر في الفقه وثالثا في الحديث ورابعا في التفسير وخامسا في الأصول وسادسا في المصطلح وسابعا في النحو إلىٰ غير ذلك من أنواع العلوم النافعة، فإنك ستجد في نفسك ما يوافق شيئا منها وتميل إليه بِطَبْعِك وتأنسُ به، فلا تثريب حينئذ أن تتبحّر في ذلك الفنّ، وإنما التثريب والعيْب والذمّ لمن حصر نفسه علىٰ فنّ واحد لا يتعدَّاه ولا يعرف إلاّ إيّاه، فإذا سألته فيما يلزمه من دينه قال لك أستاذ العقيدة: أنا ليس تخصُّصي الفقه وإنما تخصُّصي العقيدة، وقال لك أستاذ الفقه: أنا ليس تخصُّصي في العقيدة وإنما تخصُّصي الفقه، وهٰذا جهل بدين الله ﷻ، فإنّ هناك من العلم قدْر من العلم يلزمك كيفما كنت عالما أو معلما قاضيا أو مفتيا أو حاكما، فمن الجهل والعيْب الأكبر أن تكون غافلا عنه.

سُئل أحدهم: إذا ترك الإنسان ناسياً أثناء وضوئه غسل إحدىٰ يديه إلىٰ المرفق وهو بعدُ عند محلِّ الوضوء هل يغسل هٰذا العضو فقط أم يعيدُ وضوءه كله؟ فسكت، هٰذا خِرِّيج جامعة ويحمل شهادة علمية أكاديمية، لكنَّ العلم ليس بالشهادات، العلم أن تطلب العلم لله ﷻ، أن تتعلم العلم لتعبد الله عزوجل، إذا تعلمته بهٰذه النية وَقَرَ في قلبك، وإذا تعلمته لغير ذلك ذهب من قلبك، ولذلك تجد إنسانا مُتخصِّصًا ما أن يَفرَغ من أعلىٰ شهادة علمية في الترتيبات الأكاديمية النظامية فما هي إلاّ سُنيَّاتٌ حتىٰ يذهب عنه علم تخصُّصه فلا يحيط إلا بالشَّذرة التي صار يُدرِّسها كلَّ سنة، وقد علِمتُ منهم قوما باعوا مكتباتهم بعد الفراغ من الحصول علىٰ الشهادات، فهٰذا لغير حاجة لا ريب أنه مذموم، وهٰذه الأحوال لا

نذكرها اطراحًا لتحصيل هٰذه الشهادات بل ذلك مما يُمدح لأنه ممّا صار في عُرْف الناس، ولكنَّ الذي يُذمّ أن يكون الإنسان في الاِسم عالما وفي الحقيقة جاهلا.

وقد ذُكر في أخبار العلامة صالح ابن عثيمين عالم مكة في حِينِه من الحنابلة أنه حضر إلىٰ مجلس الشيخ محمد نصيف فلمّا سلم عرّفه الشيخ محمد نَصيف بالحاضرين وكانوا أربعة فقال: هٰذا فلان دكتور في كذا وهٰذا فلان دكتور في كذا وهٰذا فلان دكتور في كذا وهٰذا فلان دكتور في كذا، فوجد الشيخ اجتماعهم مناسبة في مُطارَحَتِهم العلم في الأبواب التي يُنسَبون إليها، فسَأل الأول في علمه فلم يُجب والثاني في علمه فلم يُجب والثالث في علمه فلم يُجب والرابع في علمه فلم يُجب فضحك، وقال: يا شيخ محمد هؤلاء دكاترة في إيش؟، يعني منسوبين إلىٰ تخصُّصات ولا يعرفونها فهم في الحقيقة إيش؟ مفقود منهم، ولذلك طالب العلم الحريص كما ينبغي له أن يحرص علىٰ هٰذه الشهادات ونحن من المنتسبين إلىٰ ذلك ينبغي له أن يحرص علىٰ العلم الأصيل حتىٰ لا يفقد حقيقة التي ينبغي منه.

ثم ذكر من طيَّار شعر الشناقطة قولُ أحدهم:

وإن ترد تحصيل فنٍّ تمِّمَه ... وعن سواه قبل الانتهاء مَهْ

وفي ترادف العلوم المنع جا ... إن توأمان استبقا لن يخرجا

(تمِّمَهْ) يعني أتِمَّهُ.

(مَهْ) كلمة زجر أي انتهي عن ذلك.

(وفي ترادف العلوم) يعني جمعها مترادفة.

(المنع جا) يعني أن تطلب علمين فأكثر في وقت واحد.

(إن توأمان استبقا لن يخرجا) يعني المرأة تكون حاملا بتوأمين إذا استبقا في الخروج فإنهما لن يخرجا.

والمراد بالطيّار من الشّعر: هو البيت الشائع الذي لا يُعرف قائله، وإلىٰ ذلك أشرتُ بقولي:

وشائِعُ الأبيات إن لم يُعلم ... قائِلُهُ الطَّيّارُ بين الأمَم

ثم قال: (ومن عرف نفسه قدرةً علىٰ الجمع جَمَعَ وكانت حاله استثناءً من العموم) أي إذا وجد الإنسان له قدرة علىٰ أن يجمع بين علمين أو أكثر جمع ذلك في طلبه وكان اِستثناء من العموم، فالأصل أن يُقبل ملتمس العلم علىٰ فنٍّ واحد متدرِّجًا فإذا استوفىٰ مختصراته دخل إلىٰ فنّ آخر، فإن لم يتهيّأ له

هٰذا لعدم وجود الشيخ الذي يقبل عليه كما في الإقبال علىٰ مطلوبه أو اقتضت ذلك أحوال الخلق أو غيرها، فإنَّ الإنسان يلاحظ ما يسير به سيرا حسنا في العلم، فلا غضاضة أن يحضُر الإنسان درسا في الفقه ودرسا في العقيدة إذا كان يمكنه الجمع بينها بالفهم والإدراك وداوم الإستذكار والمراجعة.

وأما إن كان لا يستطيع ذلك فإنه يجمع نفسه علىٰ علم واحد حتىٰ يُتقِنه، وقد ذكر أحمد ابن الأمين في «الوسيط» أنَّ رجلا ممن كان يلتمس علم العربية من علماء شنقيط كان لا يقرأ علىٰ شيخه من الألفية إلاّ بيتا واحدا كل يوم، كانت له القدرة أن يحفظ ويقرأ غيره، فقال له صاحبٌ له: عَجِّل، يعني عَجِّل النجاح حتىٰ ترجع إلىٰ قومك، فقال: العجلةَ أدرت، ما معنىٰ هٰذا؟

معناه أنه يريد أن يستوفي علم كلِّ بيت فلا يحتاج إلىٰ الرجعة مرة أخرىٰ ليسأل عن معنىٰ من معاني الألفية، فإذا راع الإنسان نفسه في كمال الإقبال حصَّل، وأما إذا كان يَخْبَطُ خَبْطَ عَشواء فإنه يُفلس في العلم، ومن هنا احتاج المتعلم إلىٰ الشيخ المرشد، فإن من يطلب العلم بلا مرشد لا يفلح، ولابد أن تكون بينه وبين شيخه الذي يطلب عليه العلم صِلة يسترشده فيما يقرأ وفيما يحضر وفيما يترك وفيما يقبل حتىٰ يفلح، لأنه يدله علىٰ ما ينفعه، وأما الذي يرجع إلىٰ تقدير نفسه فإنه لا خبرة له بالعلم، فإذا رجع إلىٰ نفسه وقدَّرَ أن يأخذ هٰذا ولا معرفة له ربما أضرّ بها.

المعقِد السابع

المبادرة إلى تحصيله، واغتنام سنِّ الصِّبا والشباب

قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما شبَّهت الشباب إلا بشيء كان في كُمِّي فسقط).

والعلم في سنِّ الشباب أسرع إلىٰ النفس، وأقوىٰ تعلُّقا ولصوقا.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: (العلم في الصِّغر كالنقش في الحجر).

فقوة بقاء العلم في الصِّغر، كقوة بقاء النقش في الحجر، فمن اغتنم شبابه نال إربَه، وحَمِدَ عند مَشِيبِه سُراه.

ألااغتنم سنَّ الشباب يا فتىٰ عند المَشِيب يَحمَدُ القوم السُّرىٰ

ولا يُتوهم مما سبق أنَّ الكبير لا يتعلم، بل هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ تعلموا كبارا. ذكره البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب العلم من «صحيحه».

وإنما يَعسُر التعلم في الكِبر ـ كما بيَّنه الماورديُّ «في أدب الدنيا والدين» ـ، لكثرة الشواغل وغلبة القواطع وتكاثر العلائق، فمن قدِر علىٰ دفعها عن نفسه أدرك العلم.

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (المبادرة) أي المسارعة (إلىٰ تحصيله واغتنام سنِّ الصِّبا والشباب) أي اهتبال سنّ الصِّبا والشباب غنيمة في طلبه.

ثم ذكر قول الإمام أحمد (ما شبَّهت الشباب إلا بشيء كان في كُمِّي فسقط) فالشباب الذي تغفل فيه إنما هي صورة ستمحوها عنك الأيام فاهتبل ما أنت فيه قبل ذهابه

(والعلم في سنِّ الشباب أسرع إلىٰ النفس، وأقوىٰ تعلُّقا ولصوقا. قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: العلم في الصِّغر كالنقش في الحجر) أي كقوة بقاء النقش في الحجر، فكما أنَّ نقش الحجر يبقىٰ مدة طويلة كما تشاهدونه في النقوشات المحفوظة علىٰ الأحجار في أطراف الأرض فكذلك العلم في الصِّغر يبقىٰ مدة طويلة (فمن اغتنم شبابه نال إربَه) يعني حاجته وبُغيته (وحَمِدَ عند مَشِيبِه سُراه)

ألااغتنم سنَّ الشباب يا فتىٰ عند المَشِيب يَحمَدُ القوم السُّرىٰ

ثم بيَّن أنه (لا يُتوهم مما سبق أن الكبير لا يتعلم، بل هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ تعلموا كبارا) قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب العلم: (وتعلّم أصحاب النبي ﷺ كبارا) فالكبير يتعلم، وما حسُنت بك الحياة وكان عقلك مجموعا في ذهنك فإن لك قدرة علىٰ العلم، وإنما تُفقد قدرة العلم إذا فُقد العقل، إذا صار

الإنسان هرِما لا عقل له فإنه لا يتمكن من العلم، وأما مادام الإنسان حيّا حاضر العقل فإنه قادر علىٰ التعلم، وقد ذُكر في أخبار أبي الفرَج ابن الجوزي أنه طلب علم القراءات بعد سنِّ الثمانين، فإذا كان الإنسان بعدُ حافظا عقله وذهنه فإنه يقدر علىٰ حفظ العلم ومعرفته، ولكنّ التعلُّم في الكِبَر يعسُر ولا يتعذر أي أنه يَشُقُّ ولا يمتنع (كما بيَّنه الماورديُّ في «أدب الدنيا والدين») وعلل ذلك بكثرة الشواغل، فالولد والأهل لهم مطالب.

(وغلبة القواطع) التي تمنع الإنسان من أخذ العلم.

(وتكاثر العلائق) وهي اتصلات العبد بنفسه وبغيره.

(فمن قدِر علىٰ دفعها عن نفسه أدرك العلم) ولو كان كبيرا، وفي سِيَر الأولين مُثل من ذلك، فالقفال الشافعي إنما طلب العلم كبيرا وترأس في العلم وأدرك حتىٰ صار إماما من أئمة الشافعية في زمانه، فمهما بَلغْتَ من العمر فإنك قادر علىٰ أن تبلغَ العلم، ولكنّ الشأن علىٰ كمال الإقبال علىٰ العلم والصدق فيه.

المعقِد الثامن

لزوم التأنّي في طلبه وترك العجلة

إنَّ تحصيل العلم لا يكون جملة واحدة، إذِ القلب يضعف عن ذلك، وإنَّ للعلم فيه ثِقلا كِثقَل الحجر في يد حامله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[المزمل] أي القرآن، وإذا كان هٰذا وصف القرآن الميسَّر ـ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾[النجم] ـ، فما الظنُّ بغيره من العلوم؟

وقد وقع تنزيل القرآن رعاية لهٰذا الأمر مُنجَّمًا مفرَّقا باعتبار الحوادث والنوازل، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفرقان].

وهٰذه الآية حُجَّة في لزوم التَّأنِّي في طلب العلم والتدرُّج فيه وترك العجلة، كما ذكره الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقِّه» والراغب الأصفهاني في مقدمة «جامع التفسير»

ومن شعر ابن النحاس الحلبي قوله رَحِمَهُ اللهُ:

اليوم شيءٌ وغدا مثله ... من نخَب العلم التي تلتقط
يُحصِّل المرء بها حكمةً ... وإنما السيل اجتماع النُقَط

ومقتضىٰ لزوم التأنِّي والتدرُّج: البَدَاءة بالمتون القِصار المُصنَّفة في فنون العلم حفظا واستشراحا والميلُ عن مطالعة المُطوَّلات التي لم يرتفع الطالب بعدُ إليها.

ومن تعرَّض للنظر في المُطوَّلات فقد يجني علىٰ دينه، وتجاوزُ الاِعتدال في العلم ربما أدَّىٰ إلىٰ تضييعه، ومن بدائع الحِكَم قول عبد الكريم الرِّفاعي أحد شيوخ العلم بدمشقَ الشام في القرن الماضي: (طعام الكبار سُمُّ الصِّغار).

ذكر المصنِّف وفّقه الله معقِدا آخر من معاقد تعظيم العلم وهو (لزوم التأنِّي في طلبه وترك العجلة) بأن يلتمسه بأخذه شيئا فشيئا فأخذ العلم (لا يكون جملة واحدة إذِ القلب يضعف عن ذلك) وكما يجد أحدنا ثِقلَ شيء يرفعه في يده، فإنَّ القلب يجدُ ثِقلا فيما يُؤتاه من العلم (قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل]أي القرآن) فوَصفَهُ بالثقل.

(وإذا كان هٰذا وصف القرآن الميسَّركما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[النجم]، فما الظنُّ بغيره من العلوم؟) فالعلوم ثقيلة وإن سهُل حفظها عَسُرَ ضبطها، فالقرآن سهل في أخذه ثقيل في ضبطه، والمراد بالضبط: ضبط لفظه وضبط معناه، فيما يشمل العمل به أيضا ثقيل في ذلك.

(وقد وقع تنزيل القرآن رعاية لهٰذا الأمر مُنجَّمًا) أي مُفرَّقا مُوَزَّعا (باعتبار الحوادث والنوازل) رعاية لهٰذا الأمر ، وأصل النجم: الوقت المضروب، فإذا قيل شيء مُنَجَّم أي شيء مجعول علىٰ أوقات مُفرَّقة مُعيَّنة.

ثم أورد قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ ﴾أي أنزلناه مُفرَّقا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

(وهٰذه الآية حُجَّة في لزوم التَّأنِّي في طلب العلم والتدرُّج فيه وترك العجلة، كما ذكره الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقِّه» والراغب الأصفهاني في مقدمة «جامع التفسير») فهي أصل في أخذِ العلم علىٰ هٰذا النحو، فمن أراد أن يأخذه علىٰ غير ذلك النحو فإنه لا يتعنىٰ أن يدركه.

ثم أورد قول اِبن النحاس الذي ذكره السيوطي في «بُغية الوِعاء في تراجم النحاة»، إذ قال:

اليوم شيءٌ وغدا مثله ... من نُخَبِ العلم التي تلتقط
يُحصِّل المرء بها حكمةً ... وإنما السيل اجتماع النقط

أي أنَّ السيل الأعظم إنما يكون بِاجتماع قَطْرِ الماء من السماء فإذا تكاثر صار سيلا عارِما.

ثم ذكر كيفية لزوم التأني والتدرج وأنه يكون بـ (البَدَاءة بالمتون القِصار المُصنَّفة في فنون العلم) فتُعْمَدُ إلىٰ المختصرات التي صنَّفها أهل العلم في فنونه وتأخذها، وذلك الأخذ يكون بما ذكر (حفظا وإستشراحا) فتأخذها بحفظ مبناها وفهم معناها

ويُقارِن ذلك (الميلُ عن مطالعة المُطوَّلات التي لم يرتفع الطالب بعدُ إليها) فلا يُقبِل الطالب بنفسه علىٰ الخوض في مَهْمَهِ المُطوَّلات وهو بعدُ لم يترشَّح للدخول في غِمارِها.

ثم ذكر أنّ (من تعرَّض للنظر في المُطوَّلات فقد يجني علىٰ دينه، وتجاوزُ الِاعتدال في العلم ربما أدَّىٰ إلىٰ تضييعه، ومن بدائع الحِكَمِ قول عبد الكريم الرِّفاعي ـ أحد شيوخ العلم بدمشقَ الشام في القرن

الماضي ـ: طعام الكبار سُمُّ الصِّغار) أي أنَّ الطعام الذي يُجعل للكبير إذا دُفِع إلىٰ الصغير أهلكه وأَعْطَبَه، فلو رُمْتَ أن تأخذا لحما وشحما فتضرب به في طيِّب الأرُزِّ فتَدفعُهُ لُقمةً سائغةً في فمِ جنين ذي يومين فقد أهلكته، فكذلك العلم إذا رُمْتَ أن تأخذ لُقمةً منه فتدفعها إلىٰ قلبك وأنت بعدُ لم تقدِر علىٰ مضغها فإنك تموت وتذهب وهٰذا من أسباب السقوط في العلم، فإنّ من الناس من يحبُّ العلم ويرُومُ طلبَه لكنَّه لا يُحسِن أخذه فيترَقىٰ بلا هَوَادة إلىٰ المطوَّلات، فإذا قيل له: إنّ ثمَّة درسا في ثلاثة الأصول قال هناك درس أعلىٰ وأغلىٰ في «صحيح البخاري» وهو بعدُ لا يعرف أصول دينه، فمثلُ هٰذا مثلُ ذلك الدافع إلىٰ الرضيع اللُّقمة من الشحم واللحم، يقتل نفسه، فما هي إلاّ مدة يسيرة، فيحضر مندفعا ثم يتأخر مرتفعا فتجده في أول الأيام مُبادرا ثم تجده في أواخر الأيام مُغادرا، لأنّ قلبه لم يتأهّل لذلك فهو يجدُ صعوبة في تعاطيه أخِذَ بشارق الأنوار في أول الأمر حتىٰ إذا حيل بينه وبينها تركها وذهب، لأنَّ قلبه لا يقدر علىٰ حَمْلها، فاحِرص أن تأخذ العلم بما يناسب حالك حتىٰ تفلح فيه، وإيَّاك والتكبر عن العلم تعلما وتعليما.

فهٰذه المختصرات ظهرت بركتها وبانت منفعتها للمعلم والمتعلم، ولم يزل الناس علىٰ ذلك طبقة بعد طبق وقرن بعد قرن، فمن أراد أن يرتفع في العلم والدين فعليه بطريق الماضين، ومن تكبّر عنها فإنّ علمه مدخول ومهما ظهر له من تعليم الكبار وترك الصغار فإنّ علمه ناقص، وكان الأكابر من العلماء لا ينقطعون عن تدريس المختصرات مهما بلغت رُتَبهم في العلم، وقد ذُكر في ترجمة الدَّاوُدي اِبن سُوده شارح البخاري عالم المغرب في عصر وكان يُلقَّب هلال المغرب أنه لم ينقطع عن تدريس الآجُرَّامية حتىٰ مات لصغار أهل بيته من أولاد أولاده ونحوهم، هٰذا إمام المغرب، ولكن الكتاب الذي يُبتدأ به في العربية كان يحرص علىٰ أن يعلِّمه للصغار فلم يستكبر أن يُقال: هٰذا العالم الكبير ويُدرِّس هٰذا الكتاب لأنه يعلم أن حركة هٰذه الكتب ظهرت وبانت وانتفع بها الصغير والكبير، فالذي يبتدأُ بها تُرجىٰ منفعته والذي يتركها فإنه لا تُرجىٰ منفعته بسواها.

المعقِد التاسع

الصبر في العلم تَحمُّلا وأداءً

إذ كل جليل من الأمور لا يُدرك إلا بالصبر، وأعظم شيء تتحمل به النفس طلب المعالي: تصبيرها عليه، ولهٰذا كان الصبر والمصابرة مأمورا بهما لتحصيل أصل الإيمان تارة، ولتحصيل كماله تارة أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف:٢٨]

قال يحيىٰ بن أبي كثير في تفسير هٰذه الآية: (هي مجالس الفقه)

ولن يُحصِّل أحد العلم إلا بالصبر.

قال يحيىٰ بن أبي كثير أيضا: (لا يُستطاع العلم براحة الجسم).

فبالصبر يُخرج من معرَّة الجهل، وبه تُدرك لذّة العلم.

وصبر العلم نوعان:

أحدهما: صبر في تحمله وأخذه، فالحفظ يحتاج إلىٰ صبر، والفهم يحتاج إلىٰ صبر، وحضور مجالس العلم يحتاج إلىٰ صبر، ورعاية حق الشيخ تحتاج إلىٰ صبر.

والنوع الثاني: صبر في أدائه وبثه وتبليغه إلىٰ أهله، فالجلوس للمتعلمين يحتاج إلىٰ صبر وإفهامهم يحتاج إلىٰ صبر واحتمال زلاتهم يحتاج إلىٰ صبر.

وفوق هذين النوعين من صبر العلم، الصبر علىٰ الصبر فيهما، والثبات عليهما.

لكلٍّ إلىٰ شأو العلا وثبات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات

ذكر المصنِّف وفّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (الصبر في العلم تَحمُّلا وأداءً) لأنَّ الأمور الجليلة لا تُدرك إلا بالصبر (وأعظم شيء تتحمل به النفس طلب المعالي: تصبيرها عليه، ولهٰذا كان الصبر والمصابرة مأمورا بهما لتحصيل أصل الإيمان تارة، ولتحصيل كماله تارة أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾[آل عمران:٢٠٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨])

(قال يحيىٰ بن أبي كثير في تفسير هٰذه الآية: هي مجالس الفقه) أي أن المجالس التي يجتمع فيها أولئك المُريدين وجه الله ﷻ الداعين له هي مجالس الفقه، فالعبد مأمور بأن يصبر نفسه عليها

(ولن يُحصِّل أحد العلم إلا بالصبر، قال يحيىٰ بن أبي كثير أيضا: (لا يُستطاع العلم براحة الجسم) فبالصبر يُخرج من معرَّة الجهل، وبه تُدرك لذّة العلم.)

ثم ذكر أنَّ (صبر العلم نوعان:

أحدهما: صبر في تحمله وأخذه) فأنت تحتاج إلىٰ صبر في حفظه وصبر في فهمه وصبر في حضور مجالسه وصبر في رعاية حق الشيخ وصبر في معرفة حق الزميل المقارن.

(والنوع الثاني: صبر في أدائه وبثه وتبليغه إلىٰ أهله، فالجلوس للمتعلمين يحتاج إلىٰ صبر، وإفهامهم يحتاج إلىٰ صبر، واحتمال زلاتهم يحتاج إلىٰ صبر) فإذا كنت صبرت متعلما، فاعلم أنك تحتاج إلىٰ أن تكون صابرا معلما (وفوق هذين النوعين من صبر العلم، الصبر علىٰ الصبر فيهما، والثبات عليهما) فإنَّ أمر الثبات عزيز، وعند مسلم في «صحيحه» من حديث النواس بن سمعان ﵁ أنَّ النبي ـ ﷺ ـ لمّا حدَّث بخبر الدجال قال: «فاثبتوا عباد الله» فكم من إنسان يَرومُ أمرا لكنه يعجز عن الثبات عنه، وإنما يتهيّأ الثبات بالصبر، فمن عوَّد نفسه علىٰ الصبر صبر وثبت، ومن لم يعتد ذلك فإنه سَرَعان ما ينقطع عن مطلوبه

لكلٍّ إلىٰ شَأوِ العُلا وثباتُ ... ولكنْ عزيزٌ في الرجال ثباتُ

وقلتُ في آخر منظومة الهداية:

إنَّ الثباتَ في الرجال عَزّ ... ويَغْنَمُ الرجال منه العِزَّا

المعقِد العاشر

ملازمة آداب العلم

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «مدارج السالكين »:

(أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلَّة أدبه عنوان شقاوته وبَوَاره، فما استُجلِب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجلِب حِرمانهما بمثل قلَّة الأدب).

والمـــرء لا يســـمو بغيـــر الأدب وإن يكـــن ذا حســـب ونســـب

وإنما يصلُح للعلم من تأدب بآدابه في نفسه ودرسه ومع شيخه وقرينه.

قال يوسف بن الحسين: (بالأدب تفهم العلم).

لأنَّ المتأدِّب يُرىٰ أهلا للعلم فيُبذل له، وقليل الأدب يُعزُّ أن يُضَيَّع عنده.

ومِن هنا كان السلف ـ رحمهم الله ـ يعتنون بتعلُّم الأدب، كما يعتنون بتعلُّم العلم.

قال ابن سيرين ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: (كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم).

بل إنَّ طائفة منهم يُقدِّمون تعلُّمه علىٰ تعلم العلم.

قال مالك بن أنس لفتىٰ من قريش: (يا ابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم).

وكانوا يظهرون حاجتهم إليه.

قال مخلد بن الحسين لابن المبارك يوماً:(نحن إلىٰ كثير من الأدب أحوج منا إلىٰ كثير من العلم).

وكانوا يوصون به ويُرشدون إليه.

قال مالك: (كانت أمي تُعمِّمُني وتقول لي: اذهب إلىٰ ربيعة ـ تعني ابن أبي عبد الرَّحمٰن فقيه أهل المدينة في زمنه ـ فتعلم من أدبه قبل علمه).

وإنما حُرِمَ كثير من طلبة العصر العلم بتضييع الأدب.

أَشْرَفَ الليثُ بن سعد ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ علىٰ أصحاب الحديث فرأىٰ منهم شيئا يكرهه، فقال: (ما هٰذا؟ أنتم إلىٰ يسيرٍ من الأدب أحوج منكم إلىٰ كثيرٍ من العلم).

فماذا يقول الليث لو رأىٰ حال كثير من طلاب العلم في هٰذا العصر.

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (ملازمة آداب العلم) لأنَّ الأدب من أعظم أسباب السعادة وقِلة الأدب من أعظم أسباب الشقاوة.

وذكر المصنِّف من كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» ما يُبيِّن هٰذا المعنىٰ.

ثم ذكر أن العلم لا يُصلح إلاّ من تأدب بآدابه في نفسه ودرسه ومع شيخه وقرينه (قال يوسف بن الحسين: بالأدب تفهم العلم) يعني بسبب الأدب تفهم العلم، ومن وجوه معناه (لأنَّ المتأدِّب يُرىٰ أهلا للعلم فيُبذل له، وقليل الأدب يُعزُّ أن يُضَيَّع عنده) بل يُحبس ويُمنع منه.

(ومِن هنا كان السلف ـ رحمهم الله ـ يعتنون بتعلُّم الأدب، كما يعتنون بتعلُّم العلم. قال ابن سيرين ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: (كانوا يتعلمون الهدي) أي الأدب (كما يتعلمون العلم، بل إن طائفة منهم يُقدِّمون تعلُّمه علىٰ تعلم العلم. قال مالك بن أنس لفتىً من قريش: (يا ابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم).

وكانوا يوصون به ويُرشدون إليه.) قالت أمّ مالك لمالك (فتعلم من أدبه) يعني من أدب ربيعة (قبل علمه) فالأخذ بالأدب وتعلمه من أعظم أبواب الديانة ومن المفاتيح الكبرىٰ لنيل العلم، ومن الحرمان أن لا يتأدب طالب العلم وأن يترك تعلم الأدب، وانظر هٰذا إلىٰ أحدنا إذا رأىٰ درسا في الآداب رآه درسا للعامة وينسىٰ أنه ربما كان واحدا منهم إذا كان جاهلا بالآداب التي تنبغي منه، فكم رأينا من أحوال في طلاب العلم تخالف الأدب، فيأتي أحدهم ويفتح الباب دون اِستئذان فأين أدب الدخول، وتجد أحدهم يتكلم في مَحْضَرِ الأكابر فأين أدب الكلام، في صورٍ شتىٰ أرىٰ وترون مُثلا منها، فينبغي أن يحرص طالب العلم علىٰ تعلم الأدب ثم يمتثل ذلك، وآكده أدب العلم؛ لأنه إذا حُرم أدب العلم حُرم العلم، ومن أعظم أسباب الحرمان من العلم في حال كثيرٍ من طلبة العصر تضييع الأدب، فلما ضاع الأدب رُفع العلم، وكان من تقدّم من الأشياخ يستفتحون تعليمهم بتعليم طلابهم أدب العلم، فكانت جملة من الكتب هي أوائل ما يُبادَر بتعليم المتعلم إياه، وذلك فيما يتعلق بأدب العلم، فيكون أخذه للعلم بعدُ علىٰ وجه الأدب.

وأما اليوم فقلَّت العناية بالآداب تلقينا وحظًّا وتحريضا، فتجد المعلم لا يعلم طلابه الأدب، وإذا رأىٰ منهم ما يُخِلُّ بالأدب لم يتشاغل بإصلاحهم وصار لسان أحدهم (المصلح الله)، تجد أن الشيخ يجلس علىٰ الكرسي ثم تجد الطالب أمامه يكلِّمُ بالهاتف في الدرس، ثم لا يزجره عن ذلك ولا ينهاه عن أنه في مجلس علم ينبغي أن يقبل بقلبه، وليس هٰذا فيما وقع من طالب في آخر الصفوف ربما عُذر لأنَّ المتأخرين لهم أعذار ولكنَّ الشأن في رجل يقرأ كتابا عظيما هو «صحيح البخاري»، هٰذا واقع في الرياض يقرأ صحيح البخاري ويَرُنُّ الجوال ويرُدُّ عليه لأنَّ الشيخ يشرح فهو يردُّ علىٰ الجوال لأنَّ الشيخ مشغول

بالشرح فهو عنده مكالمة مهمة، أين الأدب من هٰذا، والله لا ينال العلم، والله لا يفهم البخاري، كيف يفهمه وهو بين يديه أعظم كتاب في السُنة النبوية وشيخه يشرح هٰذه المعاني ثم هو يتكلم بالجوال، لا يمكن يا إخوان أن ينال العلم أبدا، وقِسْ علىٰ هٰذا النظير ما يشابهه في أبواب تضييع الأدب.

فمن أعظم ما ينبغي أن تعتني به أن تعتني بتَعَرُّفِ الأدب في طلب العلم، ثم باِستعمال الأدب في العلم حتىٰ تناله، وإلا اِعلم أنك ستُحرم العلم إذا لم تتأدب، فبالأدب تفهم العلم، وبسوء الأدب يضيع العلم، فمُستقِلٌّ ومُستكثِر ومُقبِل ومُدبِر.

ثم ذكر كلاما للَّيْثِ ابن سعد نحن أحقُّ به إذ قال: (ما هٰذا؟ أنتم إلىٰ يسيرٍ من الأدب أحوج منكم إلىٰ كثيرٍ من العلم).

فينبغي أن يتعاهد الطالب نفسه في الأدب وأن يتعرَّف إلىٰ الأدب في أبواب الدين كافة ولا سِيَما في أدب العلم حتىٰ يكون مُتأدِّبا في العلم، لأنَّ هٰذا المقام وهو مقام العلم من أعظم المقامات التي وُرِثَ فيها النبي ﷺ، والأكابر من الملوك يجعلون نظاما لمجالسهم تسمىٰ بالبروتكول أو بالأتكيت أو غيرها مما اِصطلح عليه الناس، فإذا فُقِد هٰذا منَّا في أدب العلم فَحَرِيٌّ أن يُفقَدَ منَّا العلم.

فينبغي أن يحرص الإنسان علىٰ معرفة الأدب الذي يتعلق بالعلم في نفسه ومع شيخه ومع قرينه ومع كتابه وفي مجلسه.

المعقِد الحادي عشر

صيانة العلم عما يشين مما يخالف المروءة ويَخرِمَها

من لم يَصُن العلم لم يصُنه العلم ـ كما قال الشافعي ـ ومن أخلَّ بالمروءة بالوقوع فيما يَشين فقد استخف بالعلم فلم يُعظِّمه ووقع في البَطالة، فتُفضي به الحال إلىٰ زوال اسم العلم عنه.

قال وهب بن مُنبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يكون البطَّال من الحكماء).

وجِماع المروءة ـ كما قال ابن تيمية الجدُّ في «المُحرَّر» وتبعه حفيده في بعض فتاويه ـ: (استعمال ما يُجمِّلُه ويَزِينُه وتجنُّب ما يُدنِّسه ويَشِينُه).

قيل لأبي محمد سفيان بن عُيينة: قد استنبطت من القرآن كلَّ شيء فأين المروءة فيه؟ فقال: (في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[الأعراف] ففيه المروءة وحسن الأدب ومكارم الأخلاق).

ومِن ألزَم أدب النفس للطالب: تحَليه بالمروءة وما يَحمل عليها وتنكبُّه خوارمها التي تُخلُّ بها، كحلق لِحيته أو كثرة الاِلتفات في الطريق أو مَدِّ الرجلين في مَجمَع الناس من غير حاجة ولا ضرورة داعية أو صُحبة الأراذل والفسَّاق والمُجَّان والبطَّالين أو مصارعة الأحداث والصغار.

ذكر المصنِّف وفقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (صيانة العلم عما يشين) أي حفظ العلم عما يقدح (مما يخالف المروءة) أي يُباين (ويَخرِمَها)؛ لأنَّ (من لم يَصُن العلم لم يصُنه العلم) قاله الشافعي، (ومن أخلَّ بالمروءة) وقع في القبائح واستخفَّ بالعلم فتُفضي به الحال إلىٰ زوال اِسم العلم عنه.

(قال وهب بن مُنبِّه ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: لا يكون البطَّال) أي الماجِنُ المتباعد عن خلائق أهل العلم (من الحكماء).

وجِماع المروءة فيما قاله ابن تيمية الجدّ (استعمال ما يُجمِّلُه ويَزِينُه وتجنُّب ما يُدنِّسه ويَشِينُه) وتبِعه حفيده أحمد ابن تيمية ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، فالمروءة جامعة لاستعمال كلِّ ما يُجَمِّل الإنسان ويَزِينُه مع اجتناب كلِّ ما يُدَنِّسُه ويَشِينُه أي: يقبحه ويُوَسِّخه.

واستنبط سفيان بن عيينة المروءة من القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[الأعراف] ففيها الأمر بملازمة المروءة وملازمة حسن الأدب ومكارم الأخلاق.

ثم ذكر أنَّ (ومِن ألزَمِ أدب النفس للطالب: تَحَلِّيه بالمروءة وما يحمل عليها وتنكبُه خوارمها التي تُخلُّ بها) وخوارم المروءة هي مفسداتها، وهٰذه الخوارم إذا جالت في ميدان مروءة العبد فإمّا أن تُضعِفها وإمّا أن تُذهِبها، فإذا تعاطىٰ الإنسان خوارم المروءة إمّا أن تضعف مروءته وإمّا أن تذهب مع الأيام والليالي فيكون ساقطا لا مروءة له، وخوارم المروءة كثيرة ذكرها الفقهاء، وذكر المصنِّف طرَفا منها، فكلُّ ما باين الشرع وخالف العُرف اندرج في خوارم المروءة.

ويجب أن يتباعد منه طالب العلم، وطالب العلم ينبغي أن يكون شريف النفس عاليَ القدْر مُترفعا عن القبائح والسَّفاسِفِ من المُخِلاتِ بالمروءة، لأنَّ العلم ميراث النبي ـ ﷺ ـ، فمن أراد أن يُعظم النبي ـ ﷺ ـ فليُعظم ميراثه، ومن تعظيمه ﷺ إظهار العبد شَرَفَ العلم بتَحَلِّيه بالأخلاق الكاملة، وكان عمر يقول: (أَحَبُّ إليَّ أن يكون القاريء أبيض الثياب) انتهىٰ كلامه، يعني تعظيما للعلم، والمراد بالقاريء يعني طالب العلم، لأنَّ لون البياض ممدوح محبوب شرعا وعقلا، فمِن كمال حال طالب العلم أن يكون علىٰ الحال العالية في لباسه، فكما يكون ذلك مطلوبا في هِندامه وخِلقانه يُطلب ذلك في خِصاله وأخلاقه.

المعقِد الثاني عشر

انتخاب الصُّحبة الصالحة له

اتخاذ الزميل ضرورة لازمة في نفوس الخلق، فيحتاج طالب العلم إلىٰ مُعاشرة غيره من الطلاب لتعينه، هٰذه المُعاشرة علىٰ تحصيل العلم والاِجتهاد في طلبه.

والزَّمالة في العلم إن سَلِمت من الغوائِل نافعة في الوصول إلىٰ المقصود.

ولا يحسن بقاصد العُلا إلاَّ اِنتخاب صُحبة صالحة تُعينه، فإنَّ للخليل في خليله أثرا.

روىٰ أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: (الرجل علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل).

قال الراغب الأصفهاني: (ليس إعداء الجليس لجليسه بمَقاله وفِعاله فقط بل بالنظر إليه).

وإنما يُختار للصُحبة من يُعاشر للفضيلة لا للمنفعة ولا للَّذّة، فإنَّ عَقْدَ المعاشرة يُبرم علىٰ هٰذه المطالب الثلاثة: الفضيلة والمنفعة واللذة.

ذكره شيخ شيوخنا محمد الخَضِر بن حسين في «رسائل الإصلاح»:

فاِنتخب صديق الفضيلة زميلا فإنك تُعرف به.

وقال ابن مانع رَحِمَهُ اللَّهُ في «إرشاد الطلاب» وهو يوصي طالب العلم: (ويحذر كل الحذر من مخالطة السفهاء وأهل المُجون والوقاحة وسيِّئي السُّمعة والأغبياء والبُلداء، فإن مخالطتهم سبب الحرمان وشقاوة الإنسان).

ذكر المصنِّف وفقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (انتخاب الصحبة الصالحة له) أي اِختيار صحبة صالحة تشارك الطالب في اِلتماسه، لأنَّ الإنسان مَدَنِيٌّ بالطَبْع أي يفتقر إلىٰ اتخاذ زملاء له يشاركونه مطلوباته، قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[الحجرات:١٣] فهٰذه الآية أصل المَدَنِيَة في القرآن، وأنَّ الإنسان محتاج إلىٰ الأنس بغيره في عِمران الأرض، ومن جملة ذلك زمالة غيره في طلب العلم (والزَّمالة في العلم إن سلِمت من الغوائل) يعني العوادي المفسدة لها فإنها (نافعة في الوصول إلىٰ المقصود).

وينبغي أن يحرِص الإنسان علىٰ انتخاب صحبة صالحة له تُعينه لأنَّ (للخليل في خليله أثرا) ومُصَدِّقه من السنة قوله ﷺ: (الرجل علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل) أي أنَّ الرجل يكون في دينه الذي يلزمه مقتديا بمن يُخالِله، فلينظر الإنسان إلىٰ خليله الذي يتخذه.

روىٰ ابن بطة في كتاب «الإبانة الكبرىٰ» عن الأصمعي قال: مارأيت بيتا أشبه بالسنة من قول الزبير بن علي:

عـن المـرء لا تسـأل وأبصِـر قرينـه إنَّ المُقـــارِنَ بالمُقـــارِنِ يقتـــدي

ثم أورد كلمة نفيسة عن الراغب الأصفهاني إذ قال: (ليس إعداء الجليس لجليسه بمَقاله وفِعاله فقط) أي أنه لا تنتقل العدوىٰ من رجل إلىٰ آخر يجالسه بالقول والفعل فقط (بل بالنظر إليه) أي أنه لو لـم يكـن حظه منه إلا أن يكون ناظرا إليه إنتقلت عدواه في حاله كمالا أو نقصا إلىٰ ذلك النـاظر، وقـد ذكـر أبـو بكـر المَرُّوذي أنَّ خمسة آلاف كانوا يحضرون مجلس أحمد لا يكتبون شيئا ينظرون إلـىٰ هَدْيه ودَلـه وسَـمْتِه، فكانوا يسترشدون بالنظر وتنتقل أحوال الكمـال منه رَحِمَهُ اللَّهُ تعـالىٰ إلـيهم، وفي الأحاديـث النبويـة مـا يشـهَد بسَرَيَان الأثر بالنظر فقط، وفي كلام قدماء الفلاسفة الإسـلاميين وغيـرهم كثيـر، فالإنسـان إذا أدمـن النظـر إلىٰ شيء سارت إليه خِلاله وخصائله وطبائعه.

ثم ذكر أنه (إنما يُختار للصُحبة مـن يُعاشـر للفضـيلة لا للمنفعـة ولا للَّـذّة) لأنَّ عَقـدَ قاصـرة المعاشـرة يكون علىٰ واحد من هٰذه الأمور الثلاثة:

فأولها: الفضيلة.

وثانيها: المنفعة.

وثالثها: اللذة.

فالمعاشِر لا يُعاشر إلا لِيَطلب فضيلة أو لِيلتمس منفعة أو لِيَجـد لـذة، ذكـر هٰـذا المعنـىٰ شـيخ شـيوخنا محمد الخضير بن حسين في «رسائل الإصلاح».

ثم قال المصنِّف (فِانتخب صديق الفضيلة زميلا فإنك تُعرف به) لأنَّ صديق اللذة والمنفعة سَرَعان ما يذهبان وتنفصل رابطة العشرة بينك وبينه إذا حصَّلا مقصودهما أو اِلتمساهُ فلم يجداه، أما من يُعاشِرك الفضيلة فإنه لا يزال مُحافظا عليها ما بقيت هٰذه الفضيلة.

ثم ذكر كلام ابن مانع في وصيته طالب العلم في «(إرشاد الطلاب» إذ قال:

(ويحذر كل الحذر من مخالطة السفهاء وأهل المُجون والوقاحة وسيِّئي السمعة والأغبياء والبُلداء، فإن مخالطتهم سبب الحرمان وشقاوة الإنسان).

قال سفيان بن عيينة: (إني لأحرِم الرجل الحديث الغريب لأجل جليسه) أي أمتنع لأنْ أحدِّث أحدا أُحبّه حديثا غريبا يستفيده لأجل جليسه الذي يعاشره.

فالعاقل ينبغي له أن يتحرَّز من مصاحبة أهل الوقاحة والدَّناءة والرَّذالة والمُجون والبطالة، واعلموا أنَّ هٰذه الأوصاف لا يظن أنها تُفقد ممن يكون ظاهره دَيِّنًا، فكم من إنسان صورته الظاهرة منسوبة إلىٰ الدين وصورته الباطنة منسوبة إلىٰ المَلاعين، لماذا؟ لأنك تجد منه أحوالا مُخِلة فتجده ينتسب إلىٰ الخير ثم لا يصلي في المسجد إلاّ صلاة واحدة، وتجده في صورته الظاهرة ينتسب إلىٰ الخير، وتجده كذّابا وتجده في صورته الظاهرة ينتسب إلىٰ الخير وتجده بَطالا، إذا قال له صاحبه: فلنحضُر درسا، قال: فلنقنِص صيدا وإذا قال له: فلنحفظ كتابا قال: لِنَطلب لَعَّابًا وهكذا، لا تبحث عن باب من الخير إلا وجدت منه ما يصرفه، فينبغي أن يتحرَّز الإنسان من صحبة الناس، وأن ينتقي من الأخلاَّء ما يفرح بالنسبة إليهم في الدنيا والآخرة، وأن يتكشَّف منهم فيما يريد أن يُقارنه كأنَّما يريد أن يُزَوِّجَه، لأنَّ الأمر عظيم، فإنَّ أخلاقه وخِصاله تَسْري إليه، ورأينا كثيرا في أُناس كانوا يُنسبون إلىٰ الصَّلاح فصحِبوا أهل البَطالة فانقلبوا إليها، ورأينا أُناسا صَحِبوا أهل الصَّلاح وكانت أحوالهم الظاهرة علىٰ خلاف ذلك فانقلبوا إلىٰ الصَّلاح والهداية.

المعقِد الثالث عشر

بَذلُ الجهد في تَحفُّظ العلم والمُذاكرة به والسؤال عنه

إذ تلقيه عن الشيوخ لا ينفع بلا حفظ ومذاكرة به وسؤال عنه، فهؤلاء تحقق في قلب طالب العلم تعظيمه بكمال الإلتفات إليه والاشتغال به، فالحفظ خلوة للنفس والمذاكرة جلوس إلىٰ القَرين والسؤال إقبال علىٰ العالم. ولم يَزَل العلماء الأعلام يَحُضُّون علىٰ الحفظ ويأمرون به.

سمعتُ شيخنا ابن عثيمين ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يقول: (حفظنا قليلا وقرأنا كثيرا فانتفعنا بما حفظنا أكثر من انتفاعنا بما قرأنا).

وبالمذاكرة تدوم حياة العلم في النفس ويقوىٰ تعلُّقُه بها، والمراد بالمذاكرة مدارسة الأقران، وقد أمرنا بتعاهد القرآن الذي هو أيسر العلوم.

روىٰ البخاري ومسلم عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أن رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت»

قال ابن عبد البَرّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في كتابه «التمهيد» عند هٰذا الحديث: (وإذا كان القرآن المُيسر للذكر كالإبل المعقَّلة من تعاهدها أمسكها فكيف بسائر العلوم).

وبالسؤال عن العلم تُفتتح خزائنه، فحُسن المسألة نصف العلم، والسؤالات المصنَّفة كمسائل أحمد المروِيَة عنه بُرهانٌ جَلِيّ علىٰ عظيم مَنفعة السؤال.

وهٰذه المعاني الثلاثة للعلم بمنزلة الغرْس للشجر وسَقْيه وتنميته بما يحفظ قوته ويدفع آفته، فالحفظ غرس العلم، والمذاكرة سقيه، والسؤال عنه تنميته.

ذكر المصنِّف وفقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (بَذلُ الجهد) أي الوُسع والطاقة بضمِّ الجيم وفتحها، في ثلاثة ميادين:

أحدها: (تَحفُّظ العلم) أي طلب حفظه.

والثاني: (المُذاكرة به) أي مدارسته مع الأقران.

والثالث: (السؤال عنه) أي الاستفسار عما يغمُض ويُشكل منه.

وساق من القول في ذلك أنه (لم يَزَل العلماء الأعلام يَحُضُّون علىٰ الحفظ ويأمرون به).

قال شيخنا ابن عثيمين ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ فيما سمعته منه: (حفظنا قليلا وقرأنا كثيرا فانتفعنا بما حفظنا أكثر من انتفاعنا بما قرأنا) لأنَّ العلم المحفوظ يبقىٰ في القلب فيَسهُل الوصول إليه والبناء عليه.

(وبالمذاكرة) أي مدارسة العلم (تدوم حياة العلم في النفس) قال المِزِّي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (فأدِم بالعلم مذاكرة فحياة العلم مذاكرته).

(وقد أُمرنا بتعاهد القرآن الذي هو أيسر العلوم) ففي الصحيحين أنّ النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة») أي المقيدة «إن عاهد عليها أمسكها» يعني إن رعاها أمسكها «وإن أطلقها» غفل عنها وحلَّ قيودها «ذهبت».

ثم ذكر كلام ابن عبد البرّ إذ قال في «التمهيد»: (وإذا كان القرآن المُيسر للذكر كالإبل المعقَّلة من تعاهدها أمسكها فكيف بسائر العلوم) فيحتاج المرء إلىٰ تعاهد العلوم، ومن ظنَّ أنه يتعاهد كلّ ما تعلَّمه فإنه قد ظنَ غلطا، وإنما المتعاهَد هو أصول العلوم وهي التي كان يُلِظُّ بها العلماء، فَأَلِظَّ بأصول العلوم حفظا واِستشراحا وتعاهدا يبقىٰ العلم معك، لأنَّ من بنىٰ أصول العلم في قلبه أمكنه أن يتكلم فيه وأن يُنشِيء من أفكار المعاني ويستخرِج ظنائِن العلوم مالم يقرأه في كتاب لصحة الأصول التي بنىٰ عليها.

ومن لطائف الأخبار أنّ آيةً أَشكل تفسيرها في كلام الماضين، فتكلم فيه الشيخ ابن عثيمين ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بكلام ثم قال: إلا أنني لم أجد أحدا ذكر هٰذا الكلام وهو الأظهر عندي، فراجع أحد نُجباء الطلبة كتاب (التحرير والتنوير) للطاهر ابن عاشور فوجد كلام الطاهر حذو القذّة بالقذة بكلام ابن عثيمين، فأخبره بذلك فقال: إني لا أعرف هٰذا الكتاب، ثم سأله هل هو مطبوع أم لا، فقال: هو مطبوع، فالتمَس منه الشيخ أن يُحضر نسخة له، فانظُر إلىٰ موافقته لظنائن العلم التي بذل فيها بعض أهله كالطاهر ابن عاشور تحقيقا، لأنه بنىٰ علىٰ أصول صحيحة فإذا شيَّد الإنسان علمه علىٰ الأصول الصحيحة في الحفظ والفهم والتعاهد فإنَّ علمه يتفجر ويَبرُز ويظهر ولو لم يقرأ أكثر الكتب التي بين أيدي الناس، فكم من قاريء يَستكثِر القراءة لكنه لا يُحسِن فهم العلم ولا البناء علىٰ أصوله وتفريع فروعه.

ثم ذكر بعد ذلك منفعة السؤال عن العلم أنها (تَفتتح خزائنه، فحُسن المسألة نصف العلم، والسؤالات المصنَّفة كمسائل أحمد المروِيَة عنه بُرهانٌ جَليّ علىٰ عظيم مَنفعة السؤال) فالسؤال عن العلم نافع، وكم من مسألة لم يصلك علمها إلاَّ بسؤال حَسَنٍ سمعته، وأذكر من نفائس السؤالات في شرح العقيدة الواسطية للشيخ ابن باز ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أنه سُئل هل الصبور من أسماء الله؟ فأجاب علىٰ البديهة: لا، ففجَّر هٰذا العلم عند جماعة من الطلبة، بحثوا وراجعوا في المسألة، فانظر إلىٰ إجابة واحدة من عالم راسخ كم ينتفع بها طلاب العلم، فسؤال العالم إذا وقع موقعا حسنا استفاد منه الطلبة فائدة عظيمة، فسؤالات أهل العلم من طرائق الاِستفادة من علمهم إذا وقعت في موقعها الحسن وسيأتي بيان ذلك.

ثم قال: (وهٰذه المعاني الثلاثة للعلم) يعني الحفظ والمذاكرة والسؤال (بمنزلة الغرس للشجر وسَقْيه وتنميته بما يحفظ قوته ويدفع آفته، فالحفظ غرَس العلم، والمذاكرة سقيه، والسؤال عنه تنميته.)

المعقِد الرابع عشر

إكرام أهل العلم وتوقيرهم

إنَّ فضل العلماء عظيم ومَنصِبهم مَنصِب جليل لأنه آباء الروح، فالشيخ أبٌ للروح كما أنَّ الوالد أبٌ للجسد، فَالاعْتِرَافُ بِفَضْلِ الْـمُعَلِّمِينَ حَقٌّ وَاجِبٌ.

قال شعبة بن الحجاج:(كل من سمعت منه حديثًا فأنا له عبد).

واستنبط هٰذا المعنىٰ من القرآن محمد بن علي الأُدفُوي فقال ﷺ: (إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد فهو له عبد، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف:٦٠] وهو يُوشع بن نون ولم يكن مملوكا له، وإنما كان مُتَلمِذا له مُتبعا له، فجعله الله فتاه بذلك).

وقد أمر الشرع بِرعاية حقِّ العلماء إكراما لهم وتوقيرا وإعزازا.

فروىٰ أحمد في «المسند» عن عبادة ابن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا ويَرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه).

ونقل ابن حزم الإجماع علىٰ توقير العلماء وإكرامهم.

فمن الأدب اللازم للشيخ علىٰ المتعلم مما يدخل تحت هٰذا الأصل التواضع له والإقبال عليه وعدم الاِلتفات عنه ومُراعاة أدب الحديث معه وإذا حدَّث عنه عَظَّمه من غير غلوٍّ بل يُنزله منزلته لئلا يَشينه من حيث أراد أن يمدحه وليشكر تعليمه ويَدْعُ له ولا يُظهر الاستغناء عنه ولا يُؤذِه بقول أو فعل وليتلطّف في تنبيهه علىٰ خطئه إذا وقعت منه زلة.

ومما تناسب الإشارة إليه هنا بِاختصار وجيز معرفة الواجب إزاءَ زلّة العالم، وهو ستة أمور:

الأول: التثبُّت في صدور الزَّلة منه.

والثاني: التثبت في كونها خطأ وهٰذه وظيفة العلماء الراسخين فيُسألون عنها.

والثالث: ترك اتباعه فيها.

والرابع: إلتماس العذر له بتأويل سائغ.

والخامس: بذل النصح له بلطف وسِرّ لا بعُنف وتشهير.

والسادس: حفظ جَنَابه فلا تُهدر كرامته في قلوب المسلمين.

ومما يُحذَّر منه مما يتصل بتوقير العلماء ما صورته التوقير ومآله الإهانة والتحقير، كالإزدحام علىٰ العالم والتضييق عليه وإلجَائِه إلىٰ أعْسَر السُّبُل.

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (إكرام أهل العلم وتوقيرهم) أي إجلالهم، لأنَّ (فضل العلماء عظيم ومنصِبهم منصِب جليل لأنه آباء الروح) قال أبو العباس ابن تيمية: (المعلم والمؤدب والشيخ أبٌ للروح كما أنّ الوالد أبٌ للجسد) ذكره تلميذه ابن القيم ـ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ ـ (فَالاعْتِرَافُ بِفَضْلِ الْـمُعَلِّمِينَ حَقٌّ وَاجِبٌ)

(واستنبط هٰذا المعنىٰ من القرآن محمد بن علي الأُدفُوي) نسبة إلىٰ أُدفُوة من صعيد مصر (فقال ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: (إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد فهو له عبد) أي بمنزلة المملوك له لأنَّ له عليه منة (قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾[الكهف:٦٠] وهو يُوشع بن نون ولم يكن مملوكا له) أي لم يكن ممن يملكه مِلك اليمين رقيقا له (وإنما كان مُتَلمِذا له) أي تلميذا آخذا عنه (فجعله الله فتاه بذلك).

ثم ذكر المصنِّف دلائل الشرع علىٰ إكرام العلماء وتوقيرهم من الحديث والإجماع الذي نقله ابن حزم في «مراتب الإجماع»، فيجب علىٰ العبد أن يُوَقِّر أهل العلم وأن يُكرمهم.

ثم ذكر المصنِّف طَرَفًا (من الأدب اللازم للشيخ علىٰ المتعلم مما يدخل تحت هٰذا الأصل التواضع له والإقبال عليه وعدم الِالتفات عنه ومُراعاة أدب الحديث معه وإذا حدَّث عنه عَظَّمه من غير غُلوٍّ) أي من غير مبالغة في زيادة قدره (بل يُنزله منزلته لئلا يَشينه) أي يُنقص من قدره (من حيث أراد أن يمدحه وليشكر تعليمه ويَدْع له ولا يُظهر الِاستغناء عنه ولا يُؤذِه بقول أو فعل وليتلطف في تنبيهه علىٰ خطئه إذا وقعت منه زلة) أي فليسلك سبيل اللطف في تنبيهه علىٰ خطئه إذا بَدَرت منه زلة، لأنه ليس أحد إلاّ وهو ذو خطأ، فالمتكلم في العلم يقع منه الخطأ في العلم كما يقع الخطأ منه ومن غيره في الفعل، ووقوع الخطأ والزلة ليس أمرا مُستَنكرا لأنه من جملة الجِبلة البشرية.

ثم ذكر أنَّ من المناسب للمقام الإرشاد إلىٰ الواجب إزاء زلّة العالم، وهو ستة أمور:

(الأول: التثبت في صدور الزَّلة منه) أي طلب الثَبَتِ في صحة نسبة ما ذُكر إليه، فكم من شيء يُنسب إلىٰ أحد من أهل العلم لا يكون صحيح النسبة، وقريبا راج في أواخر رمضان نسبة القول بالبدعة في حقِّ من هنَّأ قبل العيد إلىٰ الشيخ ابن فوزان ولا حقيقة لهٰذا، وإنما هٰذا شيء ادُّعِيَ كذبا ونُسب إليه.

(والثاني: التثبت في كونها خطأ) فكم من شيء يُظَنُّ أنه خطأ والأمر بخلاف ذلك، كما قال الشاعر:

وكم من عائِب قولا صحيحا وآفتُهُ من الفهم السَّقيم

فلا يتبيَّن كون الشيء خطئًا إلا لمن رسخ علمه، فبيان كون الشيء خطئًا وزلَّةً مُوكَلٌ إلىٰ العلماء الراسخين فيُسألون عنها، ذكر هٰذا الشاطبي في كتاب «الموافقات» وأبو الفَرَج ابن رجب في«جامع العلوم والحكم».

فإذا أردت أن تتبين أنَّ أمرًا صدر من عالم هو زلَّة فلا ترفع سؤالك إلىٰ غُلَيْمٍ وإن عظُم قدره من العلم، فإنه لا يتبيَّن كونه زلَّةً من الزَّلاَّت إلاَّ عالم راسِخ كَبُرَ في علمه وكَبُرَ في عمُره، ولمَّا صار الناشِئة والدَّهْماء يَعرِضون ما بَدَرَ من الزَّلاَّت من أهل العلم وشيوخ المعرفة إلىٰ من تقاصر عن رُتبة الراسخين وقع الناس في الخَبْط ولوَّنوا أحوالهم ألوانا وأشكالا، وإنما ينجوا من هٰذا مَن إذا عَرَض شيء من هٰذه المسائل رفعه إلىٰ أهل العلم الراسخين، وأهل العلم الراسخين معروفون لكلِّ ذي عينين لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، وأكبر دلائل ذلك كونه ممن ظهر علمه وطال عمُره، فلا يأخُذَنَّكم في زفة شابّ بَهَرَ الناس بعلمه وحِفظه وإنما تنتظره الأيام، فكم من إنسان كان أولَّ أمره علىٰ ذلك فما هي إلاَّ سُنَيَّات حتىٰ انقلب من حال إلىٰ حال، فرأينا أُناسا كبارا كانوا يقرأون علىٰ بعض العلماء الكبار ويُشار إليهم بالعلم ونالوا الأُستاذِية في الشهادات المُعاصِرة، فلما تغيَّرت الأحوال وتبدَّلت ظهروا بمقالات شنيعة بَشِعة في الدّين حتىٰ قال أحدهم إفكا وزورا إنما هي سنوات قليلة فيذهب هؤلاء الكبار فيتجدَّدُ الدِّين في السعودية، هٰذه كلمة إنسان كان يقرأ علىٰ كبار العلماء وعنده شهادة كبيرة من الشهادات الأكاديمية ولكنه خاب وخسر، والدين ليس مَرْهُون بأحد من الخلق، الدين دين الله والله حافظٌ دينه بعِزِّ عزيز أوذُلِّ ذليل، ولكن الذي يُؤلم القلب مثل هٰذه المشاهد، فاحذر أن تكون واحدا منهم يُشيرُ لك الناس في المباديء بالرِّفعة ثم ما هي إلا سُنَيَّات حتىٰ تتَّضِح وتُخذَل، فلا تعرِض دينك علىٰ من لم يترشَّح للرسوخ بعدُ ممن لم يكبر سِنُّه مع كِبَر علمه ولم يكن له تمييز بمعرفة المسائل، فإنَّ الدين ليس ظواهر المسائل

فقط بل هو مسائل ومآلات فيَعرِف المتكلم فيه ما تؤول به المسألة في حال الخلق فيتبيَّنُ له ما يُناسب الخلق إفتاءً وإعلاما وإرشادا.

ثم ذكر الأمر الثالث وهو (ترك اِتباعه فيها) أي إذا تبيَّن زلَّته فإنه لا يُتابَع فيها ولا يُقتدىٰ به، ومن الناس من صار يقول اليوم: إن كان هٰذا الأمر مُستَنكرا عند فلان وفلان فهو قول فلان وفلان وهو يَعرِف أنَّ قول فلان وفلان زلة من زلاتهم، فإذا قلتَ له: إنَّ الإحتفال بعيد الميلاد أفتت اللجنة الدائمة بحُرمته قال: فلان وفلان أجازوه وهو يعلم أنَّ فلانا وفلانا زلوا في هٰذه المسألة، وأنَّ الحقَّ الحقيق علىٰ خلاف قولهما، فإنه يُترك اتباعه فيها ولا يُتخذ مَطِيَّة فيتبرأ الإنسان من نفسه فيقول: أفتىٰ فلان بذلك.

(والرابع: إلتماس العذر له بتأويل سائغ) أي حَمْلُ كلامه علىٰ وجه مُحتمل مقبول، ومَحَله ما قَوِيَ مأخذه، أما الأقوال الشاذة الساقطة فهٰذه لا تُحمل علىٰ معانٍ مُتَأَوَّلة لبُعد التأويل حينئذ، فإذا أراد الإنسان أن يتطلَّبَ عذرا لأحد يتطلبه إذا كان محتملا وأما إذا لم يكن محتمِلا فإنَّ الحق أحبُّ من فلان وفلان، ففلان أخطأ كما أخطأ قبله من أخطأ من أهل العلم والفضل، فيُلتمَسُ التأويل مع وجود المأخذ القوي، أما أن يأتي الإنسان إلىٰ مسألة شاذة باذَّة ساقطة يتكلم بها مَنسوب إلىٰ العلم فيقول حينئذ هو مجتهد، والاجتهاد له حدود إذ ليس الاجتهاد مَرْتعا خَصْبا يتكلم به الإنسان في كل شيء كيفما شاء، فإذا قيل له: بأنَّ البراء يكون من الكافر المطلق، قال: لا، فلان يقول فقط من من المقاتل المُعادي أما غيره فإنَّا لا نتبرأ منه، فمِثلُ هٰذا القول قول ساقط لم يقل به أحد من العلماء، وإنما قال به المبهورون بالتقاء الحضارات والتعايش الثقافي والتواصل بين المجتمعات كما صاروا يسمونه اليوم، وأما الدليل البيِّنُ الواضح فمُعرِبٌ أنَّ هٰذا القول قول ساقط فمثله لا يُتؤوَّل ولا يلتمس له العذر بل يُقال هٰذا قول ساقط ويُرَدُّ علىٰ صاحبه ويُناصح فيه لئلاَّ يُضِرَّ بدينه.

ثم ذكر الخامس وهو (بذل النصح له بلطف وسِرّ لا بعنف وتشهير) لأنَّ المراد من نصحه هو رَدُّهُ عن غلطه لا إمضاؤه، وإذا عنَّفت عليه وشَهَّرت به فالطبيعة الآدمية والجِبلة الإنسانية تحمل صاحبها أن يُلازم خطأه، لأنَّ الإنسان ظلوم جَهول لكن إذا نوصح بلطف وسرٍّ فيُرجىٰ أن يرجع عن خطئه.

ثم ذكر الأمر السادس وهو (حفظ جَنَابه) أي قدره (فلا تُهدر كرامته في قلوب المسلمين) أي لا تُستعمل تلك الزلة لإسقاطه وإهدار قدْره وإضعاف حِشمته في نفوس الخلق.

ثم ذكر ختمًا أنَّ (مما يُحذَّر منه مما يتصل بتوقير العلماء ما صورته التوقير ومآله الإهانة والتحقير، كالإِزدحام علىٰ العالم والتضييق عليه وإلجائه لأعسر السبل) فإنَّ هؤلاء المُزدحمين عليه المُضيِّقين طريقه المُلجِئينه إلىٰ أعسر السُبُل يَؤولون به إلىٰ حال مَهينة ومُحتقَرة فربما سقط وربما تأذَّىٰ به، فليلزم الإنسان أن يسلك طريق التوقير الأعظم وأما الصور المُشَوَّشة الخاطئة فإنه يتجافاها ويبتعد عنها.

المعقِد الخامس عشر
ردُّ مشكله إلى أهله

فالمعظم للعلم يُعوِّل علىٰ دَهاقِنتِهِ والجَهابذة من أهله لحَلِّ مشكلاته ولا يُعرِّض نفسه لما لا تطيق خوفا من القول علىٰ الله بلا علم والافتراء علىٰ الدين، فهو يخاف سَخْطة الرَّحمٰن قبل أن يخاف سَوْط السلطان، فإنَّ العلماء بعلم تكلموا وببصر نافذ سكتوا، فإن تكلموا في مشكل فتكلم بكلامهم وإن سكتوا عنه فلْيَسعك ما وسعهم.

ومِن أَشَقِّ المشكلات الفتن الواقعة والنوازل الحادثة التي تتكاثر مع امتداد الزمن.

والناجون من نار الفتن السالمون من وَهَج المِحَن هم من فزِع إلىٰ العلماء ولزِم قولهم وإن اشتبه عليه شيء من قولهم أحسن الظنَّ بهم فطرح قوله وأخذ بقولهم، فالتجربة والخِبرة هم كانوا أحقَّ بها وأهلها، وإذا اختلفت أقوالهم لزِم قول جمهورهم وسَوَادِهم، إيثارا للسلامة، فالسلامة لا يعدلها شيء.

وما أحسن قول ابن عاصم في «مرتقىٰ الوصول»:

وواجـــبٌ في مُشـــكلاتِ الفهـــم   تحســـينُنا الظـــنَّ بأهـــل العلـــم

ومن جملة المشكلات ردُّ زلاَّت العلماء والمقالات الباطلة لأهل البدع والمخالفين، فإنما يتكلم فيها العلماء الراسخون، بيَّنه الشاطبي في «الموافقات» وابن رجب في «جامع العلوم والحكم».

فالجادّة السالمة عرْضُها علىٰ العلماء الراسخين والاستمساك بقولهم فيها.

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (ردُّ مشكله) أي مشكل العلم (إلىٰ أهله).

فالمُعظِّم للعلم يُعوِّل علىٰ أربابه الأكابر فيه في حلِّ مشكلاته، وأشار إلىٰ هؤلاء الأكابر بقوله: (دَهاقِنَتِه) والدهاقنة جمع دِهقان وهو مثلث الدال فيقال دِهقان ودَهقان ودُهقان وهو قوي التصرُّف مع حِدَّة، (والجَهابِذة من أهله) والجهابذة جمع جِهبذ ويقال: جَهبَذ بفتح الجيم وهو النَّقَّاد الخبير ببواطن الأمور ، ومُشكلات العلم تُردُّ إلىٰ المَوصوفين بالقدرة فيه مع تمام الخِبرة والإحاطة ببواطن الأمور، والخبرة لا تُستفاد إلاَّ مع طول المدة، فينبغي للإنسان أن يَرُدَّ هٰذه المشكلات إليهم (ولا يُعرِّض نفسه لما لا تطيق خوفا من القول علىٰ الله بلا علم والافتراء علىٰ الدين، فهو يخاف سَخْطة الرَّحمٰن قبل أن يخاف سَوْط السلطان) وكثيرمن المُتَشَرِّعين اليوم يخافون سوط السلطان أكثر من خوفهم سَخَط

الرحمن ﷻ، فتجد أحدهم يُطلِق الكلام المجمل الذي يُرضي به الجماهير ولا يَجرُؤ علىٰ أن يتكلم بكلام بَيِّن في هداية الخلق، فإذا سُئل عن مسألة من غوامِض المسائل أجاب فيها بجواب مجمل حَمَّالٍ للوجوه يفهمه كل إنسان وَفقَ مايريده، فيستوي في فهمه المسلم المطيع والمسلم العاصي والمؤمن والكافر والبَرُّ والفاجر، لأنه أجاب بجواب مجمل، فلو سُئل عن تعْزية الكافر لكافر قال: لاريب أنَّ التعزية من الأحكام الشرعية الدينية التي ينبغي أن يتعلم الإنسان وجوه بَذْلِها والنفس البشرية سواء كانت مؤمنة أو كافرة لها حق من من التوقير في الشرع، فالنبي -ﷺ- مَرَّت عليه جنازة يهودي فقام لها وقال (إنَّها نفس) فالإسلام جاء بالحِفاظ علىٰ النفس كيفما كانت بغضِّ النظر عن دِيانتها، والدين له مقاصد عظيمة... إلىٰ آخر جَعْجَعَةٍ يسمعها الإنسان فلا يرىٰ طحْنا، فهو يُجيب بجواب مجمل حمَّال للوجوه متعدِّدَ المآخذ يُرضي به كلَّ طرَف، وأما الراسخ في علمه المتمسِّك بدينه فإنه يُجيب في هٰذه المسألة ونظائرها بجواب بَيِّن مبنيّ علىٰ دلائله من الكتاب والسنة رضي السلطان أم لم يرضَ وأَحَبَّ الرَّعِيَّة أم لم يُحبُّوا؛ لأنه لا يتوجه بنظره إلىٰ الراعي والرَّعِيَّة، وإنما يتوجه بنظره إلىٰ الله ﷻ، فينبغي أن يرجع الإنسان في مشكلات الأمور إلىٰ العلماء الراسخين العارفين بحق الله وحق خلقه.

ثم عَلَلَ المصنِّف ذلك بقوله: (فإنَّ العلماء بعلم تكلموا) أي إذا اِجتمع العلماء في أمر مُشكل مُدْلهِمّ في قول فاِعلم أنهم (بعلم تكلموا وببصر نافذ سكتوا، فإن تكلموا في مشكل فتكلم بكلامهم وإن سكتوا فلْيَسعك ما وسعهم) وهٰذا أمر شاقّ علىٰ النفوس لأنَّ العبودية إنما يُراد منها إخراج الإنسان من هواه، ذكره الشاطبي في «الموافقات»، وأكثر هوىٰ الناس فيما يقع من المشكلات أن يتكلموا فيها وإذا أردتَ أن تعرف صِدْقَ ذلك فانظر إلىٰ الصفحات الحاسوبية التي تسمىٰ اليوم بـ"التويتر" فكلُّ شيء يقع ولو صغيرة ستسمع فيه ألف رأي لأنَّ الناس يَجرون مع أهوائهم ولا يَجرون مع الشريعة إلاَّ من وفَّقه الله لكمال العبودية.

ثم ذكر المصنِّف أنَّ (مِن أَشَقِّ المشكلات الفتن الواقعة والنوازل الحادثة التي تتكاثر مع امتداد الزمن) فكلما مضىٰ الناس قدْما إلىٰ يوم القيامة اِزدادت الفتن والمُدْلهِمَّات.

ثم ذكر المصنِّف أنَّ (الناجين من نار الفتن السالمون من وَهَج المِحَن هم من فزِع إلىٰ العلماء ولزِم قولهم) وإذا أردتَ أن تعرفَ من هم العلماء الراسخون الذين تفزَع إلىٰ قولهم وتلزمه فاِسأل عجائز دارك، فإنَّ عجائز أهلك يعرفون هؤلاء العلماء فإذا قالوا لك إنَّ علماء البلد فلان وفلان فاعلم أنَّ هؤلاء

هم علماء بلدك، وإذا قلتَ لهم فلان ولم يعرفوه فاِعلم أنَّ هؤلاء ليسوا علماء بلدك، لأنَّ العالم الراسخ الذي ظهرت منفعته يكون قد دخل علمه وفضله ونبْله وخيره إلىٰ عامة بيوت المسلمين، وسألتُ بعض عجائزنا عن الشيخ الألباني فعرفوه وهم لا يقرأون، لكنَّ العالم الصادق يجعل الله ﷻ له ظهورا ولو لم تُظهرْه أدوات الإعلام حتىٰ تجد عجائز المسلمين في قعْرِ دُورِهِنَّ معرفة بهم، فالعالم الذي يُرجَع إليه ويُفزَع إلىٰ قوله في مشكلات المُدْلهمَّات هو العالم الظاهر المعروف الذي عرفه الناس، وكما قال مالك (العلم المشهور) فكذلك نقول: "العالم المشهور" يعني المعروف، ولا نقصد بالشُهرة الشُهرة الجماهيرية، نقصد بالشُهرة معرفة الناس بفضله وعلمه وأنَّه إذا وقعت لأحدهم مسألة قيل له اسأل فلان لم يقال له اِسأل فلان الذي يظهر في القنوات الفضائية وله مواقع حاسوبية، فكم من عالم معروف عند الناس رسوخه وثباته ولا يجد من الرَّواج الإعلامي اليوم بأدواته ما يجده كثير من الناشئة من أمثالنا ونُظرائنا.

ثم ذكر المصنِّف أنه (إن اشتبه عليه شيء من قولهم أحسن الظنَّ بهم فطرح قوله وأخذ بقولهم، فالتجربة والخبرة هم كانوا أحقَّ بها وأهلها، وإذا اختلفت أقوالهم لزِم قول جمهورهم وسَوَادِهم، إيثارا للسلامة، فالسلامة لا يعدلها شيء) والمراد بالسلامة سلامة دينك لا سلامة ظهرك، فسلامة دينك هي المَطلب الأعظم الذي ينبغي أن تتمسك بما يوصلك إليه، والإنسان إذا تكلم بكلمةٍ له بين يدي الله ﷻ عنها سؤالا، فأعِدَّ لذلك السؤال جوابا، والمرحوم من هَيَّأ الله ﷻ له أسباب الرُّشد فاِتعَظ بغيره فَرَدَّ الأمر إلىٰ أهله واِكتفىٰ بمؤونة رفعهم عن أن يتحمَّل علىٰ ظهره هٰذه المؤونة.

ثم ذكر أنَّ (من جملة المشكلات ردُّ زلاَّت العلماء والمقالات الباطلة لأهل البدع والمخالفين فإنما يتكلم فيها العلماء الراسخون، فالجادّة السالمة عرْضُها علىٰ العلماء الراسخين والاستمساك بقولهم) فيها.

المعقِد السادس عشر

توقير مجالس أهل العلم وإجلال أوعيته

فمجالس العلماء كمجالس الأنبياء.

قال سهل بن عبد الله: (من أراد أن ينظر إلىٰ مجالس الأنبياء فلينظر إلىٰ مجالس العلماء، يجيء الرجل فيقول: يا فلان أيُّ شيء تقول في رجل حلف علىٰ امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طلقت امرأته، ويجيء آخر فيقول: ما تقول في رجل حلف علىٰ امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: ليس يَحنثُ بهٰذا القول، وليس هٰذا إلا لنبيّ أو لعالم، فاِعرفوا لهم ذلك).

فعلىٰ طالب العلم أن يعرِف لمجالس العلم حقها، فيجلس فيها جلسة الأدب ويُصغي إلىٰ الشيخ ناظرا إليه فلا يلتفت عنه من غير ضرورة ولا يضطرب لضجّة يسمعها ولا يعبث بيديه أو رجليه ولا يَستنِدُ بحضرة شيخه ولا يتكئُ علىٰ يده ولا يُكثر التنحْنح والحركة ولا يتكلم مع جاره وإذا عطس خفض صوته وإذا تثاءب ستر فمه بعد ردِّه جَهدَه.

وينضم إلىٰ توقير مجالس العلم إجلال أوعيته التي يُحفظ فيها، وعِمادها الكتب، فاللائق بطالب العلم صونُ كتابه وحفظه وإجلاله والاعتناء به، فلا يجعله صندوقا يحشوه بودائعه ولا يجعله بوقا، وإذا وضعه وضعه بلطف وعناية.

رمىٰ إسحاق بن رَاهَوَيْه يوما بكتاب كان في يده فرآه أبو عبد الله أحمد ابن حنبل فغضب وقال: (أهكذا يُفعل بكلام الأبرار).

ولا يتّكئُ علىٰ الكتاب أو يضعه عند قدميه، وإذا كان يقرأ فيه علىٰ شيخ رفعه عن الأرض وحمله بيده.

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (توقير مجالس أهل العلم وإجلال أوعيته)؛ لأنَّ (مجالس العلماء كمجالس الأنبياء) فالعلم ميراث النبوة والمجلس الذي يُدَرَّسُ فيه العلم ويُذكر هو مجلس يشابه مجالس النبوة لاِتصاله بميراثها، فينبغي أن يلزم طالب العلم في المجلس أدبه وأن يعرف حقه.

وذكر المصنِّف طرَفا مما يلزم من آداب طالب العلم في مجلسه بأن (يجلس فيها جِلسة الأدب) أي الهيئة التي تكون موافقة للأدب (ويصغي إلىٰ الشيخ ناظرا إليه فلا يلتفت عنه من غير ضرورة) لأنَّ

الالتفات اختلاس يَختلِسُه الشيطان فكما أنه اِختلاس في الصلاة فهو اِختلاس في فرْد من أفرادها وهو العلم، لأنَّ العلم صلاة القلب، قاله ابن جماعة في «تذكرة السامع والمتكلم»، فالاِلتفات في الصلاة من اِختلاس الشيطان وكثرة الاِلتفات في العلم من تصرُّف الشيطان في صَرْفِ الإنسان عن العلم (ولا يضطرب لضجّة يسمعها) فإذا سمع جَلبَة وضجَّة لم يَلوِ إليها عُنقه ولا يتشاغل بها لأنه في مجلس علم له حقه (ولا يعبث بيديه أو رجليه ولا يستند بحضرة شيخه ولا يتَّكئُ علىٰ يده ولا يُكثر التنحنح والحركة ولا يتكلم مع جاره وإذا عطس خفض صوته وإذا تثاءب ستر فمه بعد ردِّه جَهدَه).

ثم ذكر ممَّا (ينضم إلىٰ توقير مجالس العلم إجلال أوعيته التي يُحفظ فيها وعِمادها الكتب) فينبغي للإنسان أن يَصُونَ كتابه وأن يحفظه ويُجله وأن يعتني به (فلا يجعله صندوقا يحشوه بودائعه) يُدخلُ فيه أشياءه، فتجد الكتاب قد اِنتفخ من كثرة ما أدخل فيه من الودائع (ولا يجعله بوقًا) أي لا يَثنيه ويَطويه، فبعض الطلبة تجده يحضر الدرس ثم يُمسك الكتاب بهٰذه الصفة، وهٰذه صفة ليست موافقة للأدب بل يمسك الإنسان الكتاب بالإثبات والإجلال، وقد حضر في مجلس شيخنا محمد بن سليمان بن الجرَّاح فقيه الكويت ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ رجل فطوىٰ الكتاب علىٰ هٰذه الصورة فزجره الشيخ وأرشده إلىٰ حَمْلِه حَمْلا رفيقا، ثم أعاد ثانية فنبَّهه الشيخ ثم أعاده ثالثة فطرده الشيخ وأمره أن يخرج من مجلسه، لأنَّ من لم يتأدب مع كتب العلم ليس من أهل العلم ولا يصلح أن يكون في زُمرتهم.

ثم ذكر ما وقع من إسحاق بن راهَوَيْه ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ إذ رمىٰ كتابا يوما كان في يده فغضب الإمام أحمد وقال (أهكذا يُفعل بكلام الأبرار) يعني بكلام الصالحين، فكيف إذا كان الكتاب مشتملا علىٰ آيات وأحاديث، فينبغي أن يتعاهده الإنسان بالحفظ والرعاية فلا يضعه علىٰ الأرض بل يلتمس له مكانا يحفظه فيه ويرفعه عن الأرض ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا، فإذا ضاق الأمر فإنه يَتسِع.

(ولا يتَّكئُ علىٰ الكتاب أو يضعه عند قدميه، وإذا كان يقرأ فيه علىٰ شيخ رفعه عن الأرض وحمله بيده) لأنَّ هٰذا من تعظيمه فقمِينٌ إذا عظَّمه أن يصل علمه إلىٰ قلبه.

المعقِد السابع عشر
الذَبُّ عن العلم والذَّوْد عن حِياضه

إنَّ للعلم حُرمة وافرة توجب الِانتصار له إذا تعرَّض لجَنابه بما لا يصلح

وقد ظهر هٰذا الِانتصار عند أهل العلم في مَظاهِر، منها:

الردُّ علىٰ المخالف، فمن استبانت مخالفته للشريعة رُدَّ عليه كائنًا من كان حَمِيَّة للدين ونصيحة للمسلمين.

ومنها: هجر المبتدع، ذكره أبو يعلىٰ الفرَّاء إجماعا، فلا يُؤخذ العلم عن أهل البدع، لكن إذا اِضطرَّ إليه فلا بأس، كما في الرواية عنهم لدىٰ المُحدِّثين.

ومنها: زجر المتعلم إذا تعدَّىٰ في بحثه أو ظهر منه لَدَدٌ أو سوء أدب.

وإن احتاج المعلم إلىٰ إخراج المتعلم من مجلسه زجرا له فليفعل كما كان يفعله شعبة ـ رَحِمَهُ الله ـ مع عفَّان بن مسلم في درسه.

وقد يُزجر المتعلم بعدم الإقبال عليه وترك إجابته، فالسكوت جواب، قاله الأعمش، ورأينا هٰذا كثيرا من جماعة من الشيوخ، منهم العلامة ابن باز ـ رَحِمَهُ الله ـ، فربما سأله سائل عما لا ينفعه فترك الشيخ إجابته وأمر القاريء أن يواصل قراءته أو أجابه بخلاف قصده.

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (الذَبُّ عن العلم والذَّوْد عن حِياضه) لأنَّ (للعلم حُرمة وافرة) فهو من شعائر الدين وهٰذه الحُرمة المعظمة (توجب الِانتصار له إذا تعرِّض لجَنابه بما لا يصلح) فإذا وقع أحد بالوُلوغ في شيء يتعلق بالعلم علىٰ ما يُبايِن المأمور به شرعا وجب الِانتصار للعلم .

(وقد ظهر هٰذا الِانتصار عند أهل العلم في مَظاهِر، منها: الردُّ علىٰ المخالف، فمن استبانت مخالفته للشريعة رُدَّ عليه كائنا من كان حمِيَّة للدين ونصيحة للمسلمين) قال أبو عبد الله أحمد ابن حنبل: (لم يزل الناس يَرُدُّ بعضهم علىٰ بعض) فليس الردُّ مُستَعظما مُستنكرا وإنما الذي يُستقبَح إذا وقع المرء مع الجَوْر والظلم، وأما مع العدل والإنصاف فإنه يُردُّ علىٰ كلِّ أحد كائنا من كان، لكن بملازمة الطريقة الشرعية في الرد، ولا يوفق إليها إلا الراسخ في العلم، فالراسخ في العلم هو الذي يوفَّق للطريقة الشرعية، وإذا أردتَ أن ترىٰ صورة من ذلك فانظُر إلىٰ ردِّ شيخنا ابن باز ـ رَحِمَهُ الله ـ علىٰ العلامة الألباني في مسألة

موضع اليدين وإرسالهما وقبضهما في الصلاة بعد الرفع من الركوع، ونظيرها كذلك رسالة الشيخ حَمَد ابن عتيق ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ إلىٰ الشيخ صِدِّيق حَسَن خان فيما وقع في تفسيره من أغلاط.

ثم ذكر (ومنها: هجر المبتدع، ذكره أبو يعلىٰ الفرَّاء إجماعا) أي ذكر الإجماع علىٰ هجر المبتدع تأديبا له وتعنيفا علىٰ بدعته، فالمبتدع يُهجر ويُصارَم لأنَّ مواصلة المبتدع تُفضي إلىٰ مُلاينته في بدعته فهٰذا صار شيئا سهلا علىٰ الناس تحت تأثير أشياء متباينة للكافر وغير الكافر، فصار صاحب البدعة الداعي إليها يُعتذر عنه بأنَّ له حسنات أو أنَّ له جهودا في خدمة الإسلام، ومثل هٰذه الأشياء هي له بينه وبين ربه، وأما بدعته الظاهرة كوقيعته في الصحابة أو تَعَرُّضه لأئمة المسلمين كالبخاري ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أو مدحه لعلماء الرافضة وغيرهم، فمثل هٰذا لا يُقال له حسنات وخدمات إسلامية ونحوها، هٰذا بينه وبين ربه عَزَّ وَجَلَّ، وأما الناشئة والشباب فيُحَذرون من اِستماع كلامه ومن الأخذ بما يقوله في محاضراته ويُنفرون من ذلك أشدَّ التنفير وقاية لهم وحماية لهم من شَرَرِهِ وضَرَرِهِ، ولمَّا هَانَ هٰذا الأمر عند الناس هَانَ دينهم وضعُف، وصار من الناس من يُواصل المبتدعة ويُؤاكلهم ويُشاربهم ويتلاقىٰ معهم، وأهل السنة والجماعة يهجرون المبتدع ويتعبَّدون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهجره لا حَمِيَّة لأنفسهم وإنما حَمِيَّة للدين، فنحن نحبُ البعيد إذا كان مُتمسِّكا بالسنة ونبغِض القريب إذا كان مُعادِيا للسنة، فمن عادىٰ السنة هُجر ونفرَ عنه، وأذكرُ مما يدل علىٰ صحة دين بعض عجائزنا أكثر من دين بعض شبابنا أنَّ اثنين من قرابتنا اِختلفا في سماع أشرطة رجل، فقال أحدهما للآخر: إني أسمعه وأميِّزُ بعقلي، وقال الآخر: إنَّ الشيخ ابن باز وابن عثيمين نَهَيا عن سماع أشرطته، فراجعه الأول، فقالت أمهما: إن كان العلماء نهوْا عن سماع أشرطته فلا خير فيها، فانظر إلىٰ سلامة الفطرة عندها وما تكدَّرت به فطرة ابنها الذي سَوَّغ سماعها تحت ذريعة أنه لا ضرر إذا كان للإنسان عقل يُمَيِّز به.

ومن اللطائف أنني مرة سألني الشيخ بكر أبو زيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن الكتب التي صَدَرَت في مُدَّةٍ ما، فسميتُ منها أشياءً، فقال لي في أحدها: هل قرأت هٰذا الكتاب؟ فقلت: نعم، قال: ما رأيك فيه؟ قلت: كتاب حسن، يُكثِر فيه النقل عن أبي العباس ابن تيمية وغيره، فقال لي: إنكم أيها الشباب تقرأون ولا تفهمون مَآلُ هٰذا الكتاب مُلاينة أهل البدعة وترك مُصارمتهم، فانظر إلىٰ كمال فهم العالم إلىٰ ما يَؤول مثل هٰذا الكتاب إليه، وكيف أنَّ فهْمَ أحدنا نحن الشباب أن يرىٰ شيئا متبادرا من النقل عمَّن يُعظمُه كأبي العباس ابن تيمية وغيره فيراه كتابا حسنا.

ثمّ ذكر مما يتعلق بهٰذا الأصل أنه (لا يُؤخذ العلم عن أهل البدع، لكن إذا اِضطرَّ إليه فلا بأس، كما في الرواية عنهم لدىٰ المُحدِّثين) كأنْ يكون في دراسة نظامية لا اختيار له فيها.

(ومنها: زجر المتعلم إذا تعدَّىٰ في بحثه أو ظهر منه لَدَدٌ) أي خصومة (أو سوء أدب) فإنه يُزجَر عن ذلك حِفظا لحُرمة العلم وتوقيرا لجَنَابِه (وإن احتاج المعلم إلىٰ إخراج المتعلم من مجلسه زجرا له فليفعل كما كان يفعله شعبة ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ مع عفَّان بن مسلم في درسه) فكان شعبة إذا ظهر من عفان شيء يُخالف الأدب زجره وكان عفان مع إخراج شعبة له يرجع مرة أخرىٰ ويُلازم شعبة حتىٰ حمل عنه حديثا كثيرا، وربما هان هٰذا علىٰ أحدنا في مقاعد الدرس في المعاهد والكليات، فتجد أنَّ أستاذه يمنعه من الدخول لأجل تأخره فقط، فتجده يعود من غدٍ في المحاضرة نفسها الأولَ عند استاذه في الجلوس، وأما في المساجد فإذا أريد أن يُؤدَّبَ أحد بزجره عن فعل شيء قالوا: إنَّ في هٰذا تشَدُّدا، لأنَّ من لا يُميِّز ولا يُفرِّق بين الذهب والنحاس يظنُّ النحاس ذهبا، فيستَبعِدُ شهودَ مثل هٰذه الأمور في مجالس الخير والفقه والعلم، وهي أوْلىٰ من المجالس التي قد يَعيب عنها شيء من هٰذه المعاني في مقاعد الدرس في المعاهد والكليات، فكما يكون هٰذا سلوكا إصلاحيا في تلك المواضع فهو سلوك إصلاحيٌّ في مثل هٰذه المواضع، وكم من شيخ سلك ذلك، وقد ذكرتُ لكم قريبا قصة الشيخ ابن الجرَّاح ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ مع من أساء الأدب.

ثم ذكر أنه (قد يُزجر المتعلم بعدم الإقبال عليه وترك إجابته، فالسكوت جواب قاله الأعمش) فتجده يسأل سؤالا ثم لا يُجاب عن سؤاله تأديبا له وزجرا له عن مقالته.

وذكرتُ أنه مما رُأِيَ (من جماعة من الشيوخ منهم العلامة ابن باز ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ فربما سأله سائل عما لا ينفعه) يعني يسأل عما لا ينفعه ولا حاجة له به (فترك الشيخ إجابته وأمر القاريء أن يواصل قراءته) يقول: نعم، إشارة إلىٰ أن يُواصل القاريء قراءته (أو أجابه بخلاف قصده) له قصد يريد أن يصل إليه بسؤاله فيُجيبه الشيخ بخِلاف قصده، والعالم العاقل يستعمل هٰذه المظاهر في هداية الخلق، فهو لا يريد أن يتسلط عليهم وإنما يريد أن يدُلهم إلىٰ الله ﷻ، قال أبو العباس ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ ـ: (المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرىٰ وقد لا يَنقلِع الوَسَخ إلا بشيء من التخشين)انتهىٰ كلامه، فأنت ربما علىٰ يدك وَسَخ لا تزيله بها بل تحتاج إلىٰ مُكابدِتِه بصابون، وربما اِحتجتَ إلىٰ شيء من التراب كي يزول عنك ذلك الوَسَخ، فكذلك أحوالنا نحن نحتاج إلىٰ إصلاح ربما اِقترن بالتخشين الذي لا يُراد به سوىٰ هداية الخلق وإرشادهم إلىٰ الله ﷻ، فيجب علىٰ المعلم والمتعلم أن يسلكوا هٰذا السبيل في إصلاح نفسيْهما.

المعقِد الثامن عشر
التَّحفُّظُ في مسألة العالم

فِرارا من مسائل الشَّغْب وحِفظا لهيْبة العالم، فإنَّ من السؤال ما يُراد به التشغيب وإيقاظ الفتنة وإشاعة السوء، ومن آنَسَ منه العلماء هٰذه المسائل لقِي منهم ما لا يعجبه، كما مرَّ معك في زجر المتعلم، فلابد من التحفُّظ في مسألة العالم، ولا يفلح في تحفُّظه فيها إلا من أَعْمَلَ أربعة أصول:

أولها: الفِكر في سؤاله لماذا يسأل؟ فيكون قصده من السؤال التفقه والتعلم لا التعنت والتَهكم، فإنَّ من ساء قصده في سؤاله يُحرم بركة العلم ويُمنع منفعته.

والأصل الثاني: التفطنُ إلىٰ ما يَسأل عنه، فلا تسأل عما لا نفع فيه، إما بالنظر إلىٰ حالك أو بالنظر إلىٰ المسألة نفسها، ومثله السؤال عما لم يقع، أو ما لا يُحدَّث به كلُّ أحد، وإنما يُخَصُّ به قوم دون قوم.

الأصل الثالث: الإنتباه إلىٰ صلاحية حال الشيخ للإجابة عن سؤاله، فلا يسأله في حال تمنعه ككونه مهموما أو مُتفكرا أو ماشِيا في طريق أو راكِبا سيَّارته، بل يَتَحَيَّن طِيبَ نفسه.

الأصل الرابع: تيقظ السائل إلىٰ كيفية سؤاله بإخراجه في صورة حسنة متأدِّبة، فيُقدِّم الدعاء للشيخ ويُبَجِّله في خطابه، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهل السوق وأخلاط العوام.

ذكر المصنِّف وفقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (التَّحفُّظُ في مسألة العالم) أي طلب الصِّيانة وحِفظ النفس فيها، والحامِلُ علىٰ ذلك الفِرار من مسائل الشغْب، والشَّغْب بإسكان الغين هو تهييج الشرّ وتحريكه، وتحريك الشغَب بفتح الغين لا يصِحُّ لغة في أصحِّ القولين، فكما يُنهىٰ عن تحريك الفتن بالفعل يُنهىٰ عن تحريك الكلمة الموضوعة لها في اللغة وهي الشغْب، فيقال أحداث الشغْب ولا يُقال أحداث الشغَب، والموجب لذلك أيضا حفظ هيْبة العلم، لأنَّ من الأسئلة (ما يُراد به التشغيب وإيراد الفتنة وإشاعة السوء، ومن آنَسَ منه العلماء هٰذه المسائل لقي منهم ما لا يعجبه).

ثم ذكر أنَّ التحَفظ في مسألة العالم يكون بإعمال أربعة أصول:

(أولها: الفِكْر في سؤاله لماذا يسأل؟) فهو ينظر في سؤاله الذي يسوقه لأي شيء يسأل؟ (فيكون قصده من السؤال التفقُّه والتعلم لا التعنت والتَّهكم) أي لا طلب العَنَتِ وهو الحَرَج بالعالم ولا طلب السخرية به (فإنَّ من ساء قصده في سؤاله يُحرم بركة العلم ويُمنع منفعته).

(والأصل الثاني: التفطن إلىٰ ما يَسأل عنه، فلا تسأل عما لا نفع فيه، إما بالنظر إلىٰ حالك) لئلا يكون نافعا لك (أو بالنظر إلىٰ المسألة نفسها) لئلا تكون هٰذه المسألة ذات صلة بما ينفعك (ومثله السؤال عما لم يقع) أي شيء لم يقع بعد (أو ما لا يُحدَّث به كلُّ أحد وإنما يُخَصُّ به قوم دون قوم) والعالم الكامل يعرف أنَّ من السؤالات مالا يُجاب عليه كلُّ أحد.

وأذكر أنَّ الشيخ ابن باز سُئل عن مسألة سأله عنها أحد طلابه الملازمين له فسكت فتشفع السائل بشيخ آخر من قدماء أصحاب الشيخ ابن باز فسكت فتشفعا معا بالشيخ عبد الرحمن البرَّاك فأجابهم الشيخ عن المسألة، انظر هٰذه مسألة سأل عنها أناس لازموا الشيخ أقلهم فوق بضعة عشر سنة ومع ذلك هو يعرف أنَّ من إجلال العلم وهيْبة العلم وحفظ العلم أنَّ مثل هٰذه المسألة يُتحفَّظ في جوابها لِما فيها من الحَرَج في الإفتاء بها بما يترتب عليها من أحكام شرعية تتعلق بالمسؤول عنه وهي تتعلق في واقعة من الوقائع في أحد الخلق، فالعالم الراسخ يعرف متىٰ يتكلم وكيف يتكلم في هٰذه المسائل.

و(الأصل الثالث: الإنتباه إلىٰ صلاحية حال الشيخ للإجابة عن سؤاله، فلا يسأله في حال تمنعه ككونه مهموما أو مُتفكرا أو ماشِيا في طريق أو راكبا سيارته، بل يَتَحَيَّن طِيبَ نفسه) سأل رجل ابن المبارك عن حديث وهو يمشي فقال: (ليس هٰذا من توقير العلم) يعني ليست هٰذه حال يُوقَّر بها العلم.

ثم ذكر الأصل الرابع وهو (تيقظ السائل إلىٰ كيفية سؤاله بإخراجه في صورة حسنة متأدِّبة، فيُقدِّم الدعاء للشيخ ويُبَجِّله في خطابه)ويظهر حاجته إلىٰ جوابه (ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهل السوق وأخلاط العوام) بل يسوقه سِياقا حسنا لأنه إذا ساقه في سِياق غير حسن ناله مالا يرضاه، ذكر أنَّ رجلا دخل علىٰ يحيىٰ ابن مَعين في مجلسه فقال: يا أبا زكريا حدِّثني شيئا أذكرك به، فقال: (اذكرني أنك سألتني أن أحدِّثك فلم أفعل) لأنه وقع في حال لا تناسب فأجابه بما يصلح له.

المعقِد التاسع عشر

شغفُ القلب بالعلم وغلبته عليه

فصِدق الطلب له يوجب محبَّته وتعلقَ القلب به، ولا ينال العبد درجة العلم حتىٰ تكون لذته الكبرىٰ فيه.

وإنما تنال لذة العلم بثلاثة أمور، ذكرها أبو عبد الله ابن القيم ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ:

أحدها: بذل الوُسع والجَهد.

وثانيها: صدق الطلب.

وثالثها: صحة النية والإخلاص.

ولا تتم هٰذه الأمور الثلاثة إلا مع دفع كلِّ ما يُشغل عن القلب.

إنَّ لذة العلم فوق لذة السلطان والحُكم التي تتطلع إليها نفوس كثيرة وتبذل لأجلها أموال وفيرة وتسفك دماء غزيرة، ولهٰذا كانت الملوك تتوق إلىٰ لذة العلم وتحِسُّ فقدَها وتطلب تحصيلها.

قيل لأبي جعفر المنصور ـ الخليفة العباسي المشهور الذي كانت ممالكه تملأ الشرق والغرب ـ: هل بقي من الدنيا شيء لم تنله؟ فقال ـ وهو مستو علىٰ كرسيه وسرير ملكه ـ: (بقيت خصلة: أن أقعُد علىٰ مِصْطبَةٍ وحولي أصحاب الحديث ـ أي طلاب العلم ـ فيقول المُستملي: من ذكرْتَ رحمك الله؟) يعني فيقول: حدّثنا فلان، قال حدّثنا فلان، ويسوق الأحاديث المُسنَدة، ومتىٰ عُمِّرَ القلب بلذة العلم سقطت لذَّات العادات وذهلت النفس عنها، بل تستحيل الآلام لذة بهٰذه اللذة.

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقِدا آخر من معاقِد تعظيم العلم وهو (شَغَفُ القلب بالعلم) أي محبته له (وغلبته عليه) ومعنىٰ شَغَفُ القلب بلوغ محبته شغاف القلب يعني باطن القلب (فصِدق الطلب له يوجب محبته وتعلقَ القلب به).

ثم ذكر أنَّ لذة العلم إنما تنال بثلاثة أمور:

(أحدها: بذل الوُسع والجَهد) يعني الطاقة والقدرة في طلب العلم.

(وثانيها: صدق الطلب) بأن يتوجه إليه توجُّها كاملا.

(وثالثها: صحة النية والإخلاص) بأن يُصحِّح نيته في إرادته الشيء تقربا لله ﷻ وأن يُصفيَ قلبه من إرادة سوىٰ الله ﷻ.

فالنية شرعا: هي إرادة القلب العمل تقربا إلىٰ الله.

والإخلاص شرعا: هو تصفية القلب من إرادة غير الله.

فالإخلاص هو الصفة الشرعية المطلوبة للنية .

ثم ذكر أنَّ (هٰذه الأمور الثلاثة) لا تتم (إلاَّ مع دفع كل ما يُشغل عن القلب) فإذا دُفعت المُشغِلات من العلائق والعوائق عن القلب تَمَّ للإنسان لذة العلم.

ثم ذكر أنَّ (لذة العلم فوق لذة السلطان والحكم التي تتطلع إليها نفوس كثيرة وتبذل لأجلها أموال وفيرة وتُسفك دماء غزيرة).

ولهٰذا كانت الملوك تحسُّ بفقد هٰذه اللذة وتَتوق لها وتتطلب تحصيلها، قيل لأبي جعفر المنصور الخليفة المعروف: هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله؟ فقال وهو مستو علىٰ كرسيه وسريره: (بقيت خصلة) وهٰذه الخصلة تتعلق بالعلم (أن أقعُد علىٰ مِصْطبَةٍ) أي مكان مرتفع (وحولي أصحاب الحديث ـ أي طلاب العلم ـ فيقول المُستملي) فهو الذي يستخرج حديث المحدِّث ويستجيشُه (من ذكرْتَ رحمك الله) أي من حدَّثك بهٰذا الحديث (فيقول: حدّثنا فلان قال حدّثنا فلان).

فهٰذا الرجل قد بلغ أعلىٰ اللذات عند الخلق وهي لذة الملك والسلطان والحُكم ومع ذلك بقي فاقدا للذة العلم.

(ومتىٰ عُمِّرَ القلب بلذة العلم سقطت لذات العادات وذهَلت النفس عنها) فإذا عُمِر قلب الإنسان بلذة العلم اِنصرف عن غيره من اللذات، فالذي يتلذذ منا بهٰذا المجلس يَذهَلُ عن أنَّ بعض أصحابه أو خِلانِه ضرب له موعدا بعد العشاء إن وَجَدَ فراغا أن يتعشَّىٰ معهم، لأنه وجد أنَّ مِلء قلبه من حاجته أولىٰ من مِلأ بطنه، لأنَّ حاجة القلب أعظم من حاجة البطن، وإذا امتلأ القلب بلذة العلم اِستحالت الآلام لذة بهٰذه اللذة، فربما يجد الإنسان ألما ومع ذلك تزيد لذة العلم عنده فهو إن زاد الألم الذي يَلحَق به من طلب العلم كأن يكون قد أنهك بدنه أو أضعفه أو نحو ذلك من آلام طلب العلم لكنَّ لذته القلبية عامِرة، ومتىٰ استوت هٰذه اللذة في قلب الإنسان ذهل عما حوله، وقد لقيتُ رجلا كتبتُ اسمه ولا يحضُرُني الآن قبل بضعة عشر سنة في مكة فأخبرني أنه اشتغل بخدمة الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ مدة من زمنه فكان خادما له، قال: فكان يُحضَرُ له الطعام فيُجعل عنده فكنتُ أبقىٰ عنده رجاء أن أُصيب معه من طعام فكان يذهل عن هٰذا الطعام ويغفل عنه حتىٰ يبرُد فربما نبَّهته إليه بعدَ بُرودته فقال: لا حاجة

لي فيه كلهُ أو أرجِعه إلىٰ أهل البيت يقول: هٰذا الرجل كيف آكل منه وقد صار باردا، فهو ذهل عن الأكل والشراب لأنه مُقبل عن العلم والذي يجد لذة العلم يذهَل عن هٰذه الأشياء، وأنتم تعرفون أنَّ اللذات الذي يجدها الشباب ربما ينصرف أحدهم عن أمره الأكبر إليها بساعات طويلة، فربما خرج أحدهم في البَرِّ أياما حتىٰ ينسىٰ أمورا واجبة عليه، لأنه يجد أنسه ولذته في التخلِي في البراري، وربما اشتغل بلعبة من الألعاب التي تَعرِضُ بقلبه فأمضىٰ ساعات طويلة حتىٰ ينسىٰ ويَذهل عن الأمور التي تحيط به، وحُدِّثتُ عن أحد أهل العلم من زماننا ولم أسأله عن ذلك أنه دخل مكتبته ذات ليلة ليقرأ فبقي يقرأ وذهل عن نفسه حتىٰ مضت هٰذه الليلة ويومها وصارت الليلة الثانية، الليلة انصرمت ثم مضىٰ يومها ثم صارت الليلة الثانية وهو مشتغل بالقراءة ذاهِلا عن غيرها وظنه أهل البيت أنه قد فارق البيت وخرج منه، لكنَّ الإنسان إذا اِستولت هٰذه اللذة علىٰ قلبه اِنصرف عن كل شيء، وقد كنتُ أترَدَّدُ إلىٰ أحد علماء الحائِل وهو الشيخ سليمان السِّكِّيت رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فكنت إذا جلستُ معه أجلس معه خمسَ ساعات فيقول: (إذا جلستُ في العلم ذهب عني مرض الإدرار) والإدرار لا ينفك صاحبه عن الخروج إلىٰ حاجته بعد كل مدة يسيرة، فكانت تمرُّ ساعات طِوال وينسىٰ هٰذا الضرر لأنه وجد لذته، فالإنسان إذا وجد لذته في العلم ذهُل حتىٰ عن مرضه وألمه.

المعقِد العشرون

حفظ الوقت في العلم

قال ابن الجوزي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في «صيد خاطره»:

(ينبغي للإنسان أن يعرف شَرَفَ زمانه وقدر وقته، فلا يُضَيِّع منه لحظة في غير قربة، ويُقدِّم فيه الأفضل من القول والعمل).

ومن هنا عَظُمت رِعاية العلماء للوقت، حتىٰ قال محمد بن عبد الباقي البزاز: (ما ضيَّعتُ ساعة من عمري في لهو أو لعب).

وقال أبو الوفاء ابن عقيل ـ الذي صنَّف كتاب الفنون في ثمانمائة مجلد ـ: (إني لا يحلُّ لي أن أُضيِّع ساعة من عمري).

وبَلغتْ بهم الحال أن يُقرأ عليهم حال الأكل، بل كان يُقرأ عليهم وهم في دار الخلاء.

فاحفظ أيها الطالب وقتك، فلقد أبلغ الوزير الصالح ابن هُبَيْرة في نصحك بقوله:

والوقت أنفسُ ما عُنيتَ بحفظِه ... وأراه أسهلَ ماعليك يَضِيعُ

تَمَّتِ الخُلاصة

ختم المصنِّف وفَّقه الله معاقِد تعظيم العلم بالمعقِد المُتِمِّ العشرين وهو (حفظ الوقت في العلم) لأنّ الوقت هو ظرْف الأعمال وطلب العلم يحتاج إلىٰ إنفاق وقت كثير فيه، فلا ينال بُغيته منه إلا من حفظ وقته (ومن هنا عَظُمت رِعاية العلماء للوقت، حتىٰ قال محمد بن عبد الباقي البزاز: ما ضيَّعتُ ساعة من عمري في لهو أو لعب) وقال أبو الوفاء ابن عقيل (إني لا يحلُّ لي أن أُضيِّع ساعة من عمري) قال الحسن البصري: (أدركتُ أُناسا أحدهم أشحَّ بوقته من أحدكم بدراهمه) فكانوا يُعظمون الوقت ويحفظونه ولا يُضيِّعون شيئا منه، قيل لعامر بن عبد قيس الكوفي: قِف بنا نكلمك ساعة فقال: (إنَّ الشمس لا تقف) يعني أنَّ الشمس لا تنتظر الوقت يمضي، ومن شدة إعظامهم حفظ الوقت (بَلغتْ بهم الحال أن يُقرأ عليهم حال الأكل) أن يُقرأ عليه وهو يأكل (بل كان يُقرأ عليهم وهم في دار الخلاء) فإذا دخل أحدهم الخلاء لقضاء حاجته أمر أحدا أن يقرأ عليه فيسمع العلم الذي يُقرأ عليه، فينبغي أن يجتهد طالب العلم في حفظ وقته مُستنصِحا بقول ابن هُبَيْرة:

والوقتُ أنفسُ ما عُنيت بحفظه ... وأراه أسهلَ ماعليك يضيعُ

فهو سهل الذهاب، فإذا فرغ منك فاعلم أنه لا يرجع إليك أبدا.

فبهٰذا تمت الخلاصة، كما قال ابن مالك:

أحصىٰ من الكافة الخلاصة كما اقتضىٰ غنىٰ بلا خَصاصَة

فهٰذه خلاصة تعظيم العلم وهي حقيقة بإرجاع النظر فيها وتفهُّم معانيها ومن كانت له قوة علىٰ حفظها فإنه ينبغي له أن يحفظها، وبتمامها نكونُ قد فرَغنا بحمد الله من الكتاب الأول من الكتب المُقرَّر تدريسها في برنامج أصول العلم، وقد أجَزتكم برواية هٰذا الكتاب عني، وأنبِّهُ إلىٰ أمور في ختام الدرس:

أحدها: في الأسبوع القادم درس ثلاثة الأصول بإذن الله تعالىٰ في الوقت نفسه.

وثانيها: مُقرَّرات هٰذا البرنامج لها نسخ معتمدة يمكن الحصول عليها من (قِرطاسية الصواب) أو (مركز الصواب لخدمات الطلاب) فإنها ستكون موجودة عندهم، وبعد مُدَيْدةٍ يسيرة أرجو أن نطبعها كما طبعنا غيرها من المقرَّرات لكنَّ الوقت ضاق علينا وأرجو أن تكون في أول السنة القادمة قد طبعنا يعني بعد شهرين قد طبعنا المُقرَّرات ونوَزِّعها عليكم بإذن الله ﷻ، فاحرصوا علىٰ استصحاب هٰذه النسخ دون غيرها.

وثالثا: الأمور المُنبَّه إليها أنَّ من أراد أن يحضر الدرس فإنه يحضر بهٰذه النسخ، فإن أراد نسخة أخرىٰ يحضرها معه فله ماشاء أن يحضر ما يراه هو من النسخ، لكن هٰذه النسخ مُصحَّحة مُتقنة حسب الوسع والتوفيق، ولا ينبغي له أن يَحضُر بشرح معه فلا آذن لأحد أن يَحضر عندي بشرح لا شرحا من شروحي ولا شرحا لغيري، لأنَّ من أدب فهم المتن أن تُحضره بدون شرح، والطريقة التي صار عليها الناس يُحضرون المتن والشرح لم تكن طريقة طلب العلم، لأنك إذا جمعتَ معه الشرح أشغلكَ عن شرح شيخك إلىٰ غير ذلك من المضار التي تلحق بك مما بيَّناه في غير هٰذا المقام.

والأمر الرابع: كل درس من الدروس سيتبعه إن شاء الله تعالىٰ اختبار سريع في الدرس الذي يليه، سيكون علىٰ نحو وجيز سهل، وسيكون للمختبرين حظ من العناية مالا يكون لغيرهم، فمن اِعتنىٰ بدرسه اعتنىٰ به معلمه، فكل درس نفرغ منه يكون اختباره في قابله، فدرس هٰذه الليلة سيكون الِاختبار إن شاء الله تعالىٰ في الأسبوع القادم بعد درس ثلاثة الأصول، سيكون اختبارا يمكن إنهاءه في خمس دقائق وبالأكثر إنهاءه في عشر دقائق، وسترصد أسماء المختبَرين ويُحتفظ بها ويكون لهم من الحال ما يُناسب حالهم من الِاستفادة.

وفق الله الجميع لِما يحب ويرضىٰ، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.